صنهاجيّ في غرناطة

صنهاجي في غرناطة (رواية)

سميح مسعود (أديب فلسطيني)

الطبعة العربية الأولى 2022.

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، مجمع المفلح التجاري (87)، ط1. هاتف: 65620722.797162720(962+)
alaan. publish@gmail. com،
alaanpublishers. com

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN:978-9923-13-475-7

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(781/ 2/ 2022)

813.03

مسعود، «محمد سميح» عبدالفتاح

صنهاجي في غرناطة/ «محمد سميح» عبدالفتاح مسعود. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(234) ص

ر. إ: 781/ 2/ 2022

الواصفات: / الروايات العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

سميح مسعود

صنهاجيّ في غرناطة

رواية

إلـــــى

صديقي المستعرب الإسباني أنطونيو كاسترو

وأمه مرجريتا كاسترو

لافتخارهما بأجدادهما ملوك غرناطة من صناهجة حِمْيَر

حضرموت، في عهد حكم ملوك الطوائف

تدور أحداث الرواية بشكل أساسي حول الحِمْيَريين

خاصة الصناهجة منهم الذين حكموا مملكة

غرناطة وبنوا قصر الحمراء

قبل أكثر من ألف عام

يا ابنَ الأعِـزَّةِ مـن أكـابرِ حِمْيَـرٍ وسـلالَةِ الأمـلاكِ مِـنْ قَحْطـانِ

الشاعر ابن رشيق القرطبي

مادحًا الملك باديس بن حبوس الصنهاجيّ الحِمْيَري القحطاني

(1)

حملتني دروب الحياة إلى الكويت، التي فتَحَتْ أبوابها للوافدين من دول عربية وأجنبية كثيرة، وصلت إليها في عام 1967، الذي كان عامًا كئيبًا لكل العرب لخسارتهم في حرب حزيران، وفقدانهم أجزاءَ مهمة من ثلاث دولٍ عربية، وقد انطلقت أثناء تلك الظروف الحزينة بمسيرة حياتي العملية، كما بدأت في الوقت نفسه التعرف على أصدقاء من الدول العربية، تمتعت بالتعرف عليهم، وأصبحت الحياة بدونهم عسيرة لا تطاق.

عشت وعملت بالكويت على مدى سنوات طويلة، أمضيت كلَّ أوقات فراغي مع أصدقاءَ من مُواطني مختلف الدول العربية، كنت أتابع معهم أخبار بلادهم، وأخبار تداعيات حرب حزيران الكئيبة، ولم أشعر في أيّ يوم بانشراح الصدر عند تذكرها.

وجدتُ في زحمة الأيام أنَّ لليمنيين مكانة خاصة بين أصدقائي، وثلاثة منهم صعدوا إلى مكانة عالية بينهم، كنت أغوص في أحاديثهم عن اليمن السعيد في أيامه الخوالي. أحدهم اسمه ضاري، في الأربعين من عمره، يعمل أستاذًا للرياضيات، والثاني اسمه داغر، في الخامسة والثلاثين من عمره، يعمل أستاذًا للفيزياء، والثالث اسمه صارم، في الثلاثين من عمره، يعمل أستاذًا للتاريخ في ثانوية مدرسة عبدالله السالم العريقة.

كلّهم على مستوى عالٍ من الثقافة، ويعشقون القراءة في زمن يشح به القراء، وقد تعودت أنْ أشعر براحتي في بيوتهم وألمس في مكتباتهم الخاصةِ الكثيرَ من المخطوطات القديمة المكتوبة بخط اليد، منها مخطوطات عن ماضي اليمن وحضارته القديمة التي تلاشت ولم يبق منها سوى ركام آثارها المادية، ومنها أيضًا مخطوطات عن اليمنيين الذين هاجروا قبل مئات السنين وانطلقوا إلى العالم، وحكموا دولًا كثيرة مترامية الأطراف، ولم ينسوا جذورهم الحِمْيَرية في وادي وصحراء حضرموت، ومنهم من يتقن حتى الآن التحدث باللغة الحِمْيَرية القديمة، ويقيمون في مهاجرهم البعيدة عن اليمن.

لا يُضيع كتّابُهم شيئًا من الوقت سُدى، يشعرون بثقل مسؤوليتهم حول التثبت من أصلهم اليمني العربي، ويبقون مع أوراقهم يخطون عليها علامات آثار أجدادهم، يكرّرون ذكرها ويؤكدون صحة دلالاتها، ولا يستسلمون إلى هواجسهم النفسية، ويقيمون سدًّا محكمًا في وجه شكوكهم، ولا يصيبهم الوهن من مواصلة بحوثهم، وتنبسط أساريرهم وتنبعث منها ابتسامات الفرح كلما وجدوا ما يؤكد حقيقة أصولهم الحِمْيَرية.

***

ألزمت نفسي بصداقة صارم وداغر وضاري، وأصبحوا من أصدقائي الحميمين، وتعودت على حتمية اللقاء بهم مرتين أسبوعيًّا في مقهى شعبي اسمه مقهى البركة، يقع على شارع الخليج العربي، ذي مراوحَ تتدلى من

سقفه لتبريد الهواء، يقع على مقربة من حي السالمية. لاحظت من أولى جلساتي معهم أنهم تضطرم في أعماقهم نيران حُب بلدهم اليمن وكلّ الدول العربية.

كانوا يكثرون من السؤال في جلساتنا عن الضعف والهوان الذي أوصلتنا إليه حرب حزيران، ثم يُعيدون السؤال ثانية بصيغة أخرى: لماذا نحن أمة مهزومة لم تعرف الانتصارات منذ زمن طويل؟ كان أصدقائي بارعين في نسج الإجابات، يتحدّثون في مجالها ساعات وساعات، لديهم المقدرة على التحليل ووضع الأصابع على الجروح، وحتى عقد المحاكمات، وإلصاق التهم للمتهمين وإصدار الأحكام على طريقتهم وبحسب أهوائهم.

كنت أستمع لهم بتقدير كبير، وأقوم بدور المستمع فقط، وأبرّر لهم موقفي لأنني خسرت في حرب حزيران آخر حبة تراب أملكها في وطني، وعليّ إرجاعها بدلًا من الحديث عما حصل في حزيران، لأن الكلام العابر لا يجذبني ولا يبعث في نفسي الانتعاش، وأكدت لهم أنَّ الفعل ولعلعة صوت إطلاق الرصاص هو المطلوب الآن.

كانت المفاجأة أن أصدقائي وافقوا على ما أقوله لهم، وشعرت أن موافقتهم لمعت مضيئة في علاقتي معهم، غَيرت مجرى أحاديثنا في مقهى البركة الذي تعودنا على الجلوس فيه، وأخذنا نهتم أكثر فأكثر بالشؤون الثقافية. قابلنا كثيرًا مجموعة من الشعراء والكتاب، خاصة من كتاب جريدة الهدف الأسبوعية الكويتية، وعبّرت ذات يوم لأحد الشعراء، عن

إدانتي الشعراء العرب الذين تأثروا كثيرا بالشعراء الأجانب الحداثيين الذين حوّلوا قصائدهم إلى أقاصيصَ غريبةٍ خاليةٍ من الوزن والموسيقى، تتناثر الحروف فيها دون تناسق، كما يتناثر النرد بين لاعبَيْن اثنين لا يعرفان أصول اللعب.

في إحدى جلساتنا، قال صارم:

«محاضرةُ دار الآثار الإسلامية، يوم الثلاثاء القادم، سيلقيها باحث جزائري ينتمي إلى قبيلة من الأمازيغ (البربر) شهيرة في الجزائر، له مقالات وكتب كثيرة يُثبت فيها أنّ الأمازيغ ينتمون إلى قبائل حِمْيَر حضرموت العربية التي هاجرت من اليمن بعد انهيار سدّ مأرب، في وقت الهجرات اليمنية الكبرى».

أسعدني هذا الخبر كثيرًا لأنَّ الموضوع ضمن اهتماماتي الثقافية، شكرنا صارم على هذا الخبر المثير، واتفقنا على حضور المحاضرة والتعرف على مقدمها، وتمَّ الاتفاق في وقت نظرت فيه عبر نافذة المقهى، ووجدت أن غيومًا بأردان طويلة بيضاء بدأت تتجمع في السماء فوق الخليج العربي، وانتشارها في بداية فصل الشتاء من كلّ سنة فأل جميل لي، ومتعة رائعة للناظرين، لكنني أنظر لها بتوتر واضطراب عندما تظهر مُعتمة تلفعها أنسجة من الظلام.

نبَّهتُ أصدقائي لوجود الغيوم البيضاء التي تسبح في الفضاء بتموجات خلابة، نظروا ورسموا ابتساماتٍ واسعةً على وجوههم، وقال ضاري:

«بمقدار ما تحزنني الطبيعة في كوارثها التي توجهها لنا كالرماح القاتلة في تتابع دائم، فإنها تُفرحني أيضًا بمثل هذه المفاجأة الجميلة التي تتأرجح فيها الغيوم البيضاء فوق رؤوسنا..».

علّق صارم:

«علمتُ من نشرة الأخبار الجوية، التي بثّها التلفاز أمس أنَّ الغيوم البيضاء ستستمر بالظهور حتى صباح الغد، ثم ستختفي مع أول انبلاجة للنور، ثم ستعود ثانية بلونها الأسود، وستدور فوقنا دون إرادتنا عدة أيامٍ متتالية».

وبينما كنا نستعد للخروج من المقهى، قال صارم متحدثًا عن محاضرة الباحث الجزائري:

«إنَّ حضور المحاضرات الجادة متأصّلٌ في نفوس المثقفين في إطار بحثهم عن المعرفة، فهي تُساعد الكتّاب منهم على الكتابة، ونشر المعلومات المهمة، كي يعرفها عامة الناس».

قلتُ:

«سأُصفّي حالتي الذهنية في يوم إلقاء المحاضرة، حتى أستوعب كلّ حرف فيها، بما في ذلك النقاط النافرة في آخر السطور».

ضحكنا مطولًا ثم اتفقنا على اللقاء أمام قاعة محاضرات دار الآثار الإسلامية قبل ربع ساعة من الوقت المحدد لإلقاء المحاضرة.

افترقنا، واتّجه كلٌّ واحد منا إلى منزله، ومارسنا حياتنا الأسرية، وفي اليوم التالي كنت هدفًا هينًا لابني الأكبر لشراء كلِّ ما يحتاجه في بداية

الفصل الدراسي الشتوي الجديد، وأقحمت نفسي في أمور بيتية كثيرة طيلة أسبوع كامل تغيرت فيه الأجواء المناخية، وأخذ الشتاء يزحف ببطء، وتهرب منه أشعة الشمس ويغمر الظلامُ كلَّ شيء.

أكدتُ لنفسي أنه لا قدرة للإنسان على الوقوف ضد هذه الثغرات الفصلية، وليس أمامه من سبيل لتغييرها، وتجلى لي في تلك اللحظة ضعف الإنسان، وفي الحال نهضت واقفًا واستقرت عيناي على هاتف منزلي، وفي الحال اتصلت هاتفيًّا بصارم، وحدثته عن هذه الأفكار التي كانت تأتيني من المجهول. حدثته عن العتمة التي تغلق الرؤيا في أعيننا حتى في وقت الظهيرة، وقلت له بانفعال واضح، بأنني في أمسية الأمس المعتمة، وقفت رافع الرأس إلى أعلى في شرفة منزلي، وثبتُّ عينيّ على السماء، ولم أتمكن من رؤية النجوم، ووجدت أن درب التبانة غارقةٌ في الظلام، خارج نطاق بصري ولا أرى منها شيئًا، لا تستطيع العين أن تحيط بها من أي جهة، إنها لا تُرى.

استمر الهاتف بنقل كلامي لصديقي، وفي لحظة تساءل صارم بصوت خافت:

«لماذا تزجُ نفسك بتقلبات الطبيعة الغريبة، التي لم يقو عليها أحد منذ بدء الخليقة؟».

قلتُ عبر الهاتف أيضًا: «حتى أجدادنا من حِمْيَر حضرموت، لم يتمكنوا من الوقوف في وجه الطبيعة عندما انهار سدُّ مأرب».

فأجابني بصوت حاد:

«هم أول من اعترف بقسوة الطبيعة، وهربوا من كوارثها عندما انهار سدّ مأرب».

ثم أضاف قائلًا:

«هذه حقيقة تاريخية غير قابلة للجدل، وغدًا سيتحدثُ عنها محاضرنا الجزائري».

كنت في حيرة شديدة مما سمعته، ورنَّ صدى كلمة الهروب كثيرًا في أذنيّ، كانت قاسية عليَّ، وكان على طرف شفتي سؤال طرحته وأنا أشعر بالمرارة:

«ألا تعتقد بأن الجبن هو الذي يؤدي بنا إلى الهروب؟».

ضحك ضحكة مدوية، ثم التزم الهدوء، وقال:

«أنت على حقّ في ما تقول، لأنّ الطبيعة أقوى من الإنسان، لا يستطيع أن يقطع خيطًا من خيوطها الدقيقة المخفية التي تحافظ على توازنها، إنه يخشاها ويخشى نوائبها على مدى الأيام».

أشفقت على نفسي لأن المكالمات الهاتفية الطويلة تضغط بقوة على أذنيّ وتزعجني، لكن المجاملات تفرض عليّ مسايرة الأصدقاء في أحاديثهم الهاتفية الطويلة.

وها أنا أطيل الحديث مع صارم، وأشعر بأنه سينهيه في الحال، لأنني سمعت صوت زوجته وهي تطلب منه أن يشرف على نوم الأطفال.

بعدها بلَّغني طلب زوجته، وأنهى الحديث بجملة مؤداها أن محاضرنا في الغد سوف يبدأ بالحديث عن هروب مجموعة كبيرة من قبائل حِمْيَر حضرموت إلى خارج اليمن، بسبب انهيار سدّ مأرب.

انتزعني حديث صارم من واقعي، فلزمت الصمت، ثم استجمعت نفسي وتذكرت بشيء من الاهتمام كل ما قرأته من قبل، عن الطبيعة وما بعد الطبيعة والتسلسل الزمني والكون، وعن ضعف الإنسان وعدم قدرته على الصمود في وجه الطبيعة، ثم تذكرت هجرة البشر من مكان إلى آخر منذ أقدم العصور، ووجدت نفسي مدفوعًا لتذكر هجرة قبائل حِمْيَر حضرموت إلى دول كثيرة، حدقت منعقد اللسان بسقف غرفتي وتهت في دورة الأيام، فلم أتمكن من تتبعها واختراق أسوارها العالية.

بعدها لم تمض دقائق قليلة حتى حاولت النوم، لكنني لم أتمكن من إغلاق عينيّ، ثم أجبرت نفسي على أخذ حبة منوم، لكنها كانت بدون تأثير، وبقيت مستيقظًا في فراشي حتى الفجر، أسمع صوت الرياح القوية وهي تهجم على شبابيك منزلي وتهزها بشراسة لا حد لها.

(2)

التقيت مع أصدقائي أمام قاعة محاضرات دار الآثار الإسلامية في منطقة القبلة، وأخذت تصل إلى آذاننا أصوات أقدام القادمين لسماع المحاضرة، كانوا يتقاطرون خلفنا وتزداد أعدادهم شيئًا فشيئًا، وهدأت نفسي عندما دخلنا القاعة تباعًا، وجلسنا أربعتنا في الصف الثاني، في مقابل المنصة التي سيقف خلفها المحاضر، وعلى مقربة من نافذة يمكننا منها استنشاق هواءٍ عليلٍ يسري في أماسي الشتاء الأولى.

اكتمل الحضور، وجلسوا في مقاعد القاعة ولم يبق منها أي مقعد خاليًا، ثم قدمت مشرفة الدار ضيفها الباحث الجزائري عثمان السعدي، وظهر من حديثها أنه تبوأ أعلى المراكز بعد انتصار الثورة الجزائرية، وفعل كلّ ما في وسعه لبلده سفيرًا لها في عدة دول عربية وأجنبية، وبينت في سياق حديثها أنه في الوقت الحالي، عضو مهم في مجلس إدارة إحدى المؤسسات الإنمائية العربية التي تتخذ من الكويت مقرًا لها، ولأداء مسؤولياته الوظيفية في تلك المؤسسة، يقيم حاليا بالكويت ويسكن في «بناية بيبي السالم» التي تتميز بموقعها الجميل، لأنها ذات إطلالة رائعة على مياه الخليج العربي.

أدفأنا حديثها عندما بيّنت أنّ المحاضر من أمازيغ الجزائر الذين يطلق عليهم أيضًا اسم البربر، وينتمي إلى قبيلة من أشهر قبائلهم، هي قبيلة

اللمامثة، ثم بيّنت أنه باحث جاد توافرت له كل الإمكانات لإثبات عروبة البربر، وتلمّس جذورهم الممتدة حتى الآن في أرض اليمن السعيد.

نهض المحاضر، شكر مضيفته وعبر عن سعادته لسماع النبذة التعريفية التي قدّمته بها للحاضرين، ثم تلفت يمنة ويسرة كأنه كان يبحث عن شخص من جدوده الحِمْيَريين، بعدها تحدث بحفنة من الكلمات عن هجرة اليمنيّين القدماء إلى الخارج، عندما انهار سدّ مأرب، واستقروا في دول كثيرة، منها بلاده الجزائر.

اشتد لولب حديثه عندما أكد أن أجداده الأولين من حِمْيَر حضرموت، وأُلصِقَ بهم اسم الأمازيغ (البربر)، وبيّن أنَّ هذه التسمية بدعة ابتدعها الاستعمار الفرنسي، لزرع الأسافين في الوحدة الوطنية الجزائرية، وأخذ يرثي لحال «الأكاديمية الأمازيغية» التي أقامتها فرنسا غداة انتصار الثورة الجزائرية، ولم تتقدم حتى الآن قيد أنملة في تنفيذ مشروعها الانفصالي، وبرهنت الأيام أنها غير صالحة للبقاء.

شَعّت كلماته كما يشعّ النور في ليلة مظلمة، خاصة عندما تحدث عن كتبه وبحوثه التي أثبتَ فيها عروبة الأمازيغ أينما كانوا، واختلطت إنجازاته مع معجمه الموسوم «الجذور العربية للكلمات الأمازيغية (البربرية)» وهو معجم نادر حشاه بالأصول العربية لهذه الكلمات.

انتهت المحاضرة وسأله صارم بلغة المؤرخ المختص:

«بما أنني من أهلك الحِمْيَريين، أتساءل: هل تعتمد في بحوثك على المصادر التاريخية، أم تعتمد على نتائج دراساتك الميدانية؟».

فأجابه:

«يهمّني كلّ ما كتبه النسابة العرب في مخطوطاتهم القديمة، كما أعتمد على الدراسات الميدانية التي أقوم بها، وقد زرت اليمن عشرات المرات، ونبشت على الآثار المادية خاصة في وادي وصحراء حضرموت، وتعرفت على لهجة المهرة القديمة المشتقة من اللغة الحِمْيَرية وحدثتهم بها، كما زرت قبائل كثيرة في البادية السورية وبوادي دول عربية أخرى تنحدر أصولها من حِمْيَر حضرموت، وتعرفت على دلالات التشابه الكبير ما بين تلك القبائل، وقبائل الأمازيغ المنتشرة في كلّ دول شمال إفريقيا».

بعدها رفعتُ إصبعي وُسمح لي بالتحدث، تنقلت ببصري بين الحاضرين وقلتُ لهم بصوت هادئ:

مما قرأته في كتب محاضرنا الكبير، وما زلت أذكرها، اعتزاز بعض شعراء الأمازيغ بجذورهم العربية اليمنية، وتلوت ما قاله الشاعر ابن خميس التلمساني، معتزًّا بأصله الحِمْيَري:

وإذا انتسبتُ فإنّني من دَوْحَةٍ ... يتفيَّأُ الإنسانُ بردَ ظِلالِها

مِنْ حِمْيَر مِنْ ذي رُعينٍ مِنْ ذَوي ... حجْرٍ من العُظَمَاء من أقيالِهَا

أجاب المحاضر على الفور:

«يوجد قصائد كثيرة تتلألأ فيها جذور الأمازيغ العربية، الممزوجة بأجمل القوافي الساحرة».

أصغيتُ له باهتمام زائد، وأدركت على الفور أنَّ محاضرنا من كبار الباحثين، وقررت أن أسأله عن الصناهجة، واستأذنت لطرح سؤالي عنهم، وسرَّه سؤالي أيّما سرور لندرة الناس الذين يعرفونهم في الزمن الحالي.

اجتاحتني فرحة كبيرة عندما بيَّن أنَّ كلّ المصادر المهمة، بما فيها مقدمة ابن خلدون وابن الكلبي وابن كثير والطبري وغيرهم، تؤكد أنهم من العرب العاربة من حِمْيَر حضرموت.

كما تؤكد نفس المصادر أن قبائل الطوارق، هم أيضًا من العرب العاربة، من حِمْيَر حضرموت.

وقد اعتز شاعر «طرقي» بأصله الحِمْيَري اليمني، وقال في قصيدة له:

قوم لهم درك العلى في حِمْيَر ... وإن انتموا صنهاجة فهمُ همُ

لما حووا إحراز كل فضيلة ... غلب الحياءُ عليهمُ فتلثموا

سأل أحد الحاضرين بصوت مرتفع:

«من هم الصناهجة؟».

وسمعنا همهمة من بعض الحاضرين يردّدون نفس السؤال، واستأنف المحاضر حديثهُ مبينًا أنهم مجموعة قبائل من أشهر القبائل العربية، منهم سكان منطقة القبائل الجزائرية، وسكان موريتانيا وشعب الطوارق، ومنهم قبائل في السودان والسنغال والصحراء الكبرى والأطلس المتوسط، ولهم وجود في الأندلس وفي مناطق أخرى في شمال إفريقيا.

وردّد أحد الحاضرين متسائلًا بصوت مرتفع:

«هل لهم ذكر في التاريخ؟».

فأجاب محاضرنا:

«لهم تاريخ مجيد، فقد أسسوا دولة قبيلة «مسوفة» في موريتانيا، ودولة بني زيري ومملكة أودغست، وساهموا في تأسيس دولة المرابطين، وكانوا من الدعائم الأساسية لدولة الفاطميين، كما حكموا مملكة غرناطة أثناء حكم ملوك الطوائف».

بعدها طُرحت أسئلة كثيرة، وعندما أجاب المحاضر عنها، أنهت مشرفة الدار الجلسة، وبدأ الحضور بالخروج. كنت أمشي مع صاري جنبًا إلى جنب وعندما اقتربنا من المحاضر، قال لنا:

«أعيدوا قراءة تاريخنا القديم، من المخطوطات المشهود لها بصحة المعلومات، حاولوا التعرف على مملكتي سبأ وحِمْيَر، وبخاصة الملك سيف بن ذي يزن الذي حمل شعلة الحرب ضدّ جيش الحبشة، وطرد الأحباش من بلاده بعد أن احتلوها فترة طويلة من الزمن».

استمر واقفًا معنا، رغم رغبة بعض الحاضرين في التحدث معه. لم يختلج في صدري أيُّ شيء آخر، يحتاج إلى توضيح منه، وفي الحال أنهى حديثه معنا، قائلًا:

«تعرفوا على أجدادنا وأنتم تقرؤون عنهم في المخطوطات القديمة، ألقوا نظرات عميقة على حضارتهم وحروبهم وقصورهم ونمط عيشهم ورحيلهم من اليمن، وتعرفوا على نقوشهم بخط المسند الحِمْيَري، وكلّ

آثارهم المادية التي أبقوها لنا وما زالت شامخة في وجه الطبيعة رغم مرور السنين الطويلة».

ودّعناه وتمنّى صارمٌ أن يراه في قادم الأيام في بيته بمدينة «سيئون» الحضرمية، أو بيته في تريم مدينة زوجته، المليئة بناطحات السحاب الطينية التي يعتبرها العالم من أهم المآثر الحضارية القديمة.

ساد السكوت هنيهة، وعاد محاضرنا إلى الحديث ثانية، وقال:

«زرت ناطحات السحاب عدة مرات، ودخلت عشرات منها، وهي ما زالت باقية حتى الآن، تناطح الأيام، وعندما رأيتها لأول مرّة، شعرت بالفخر بمجد أجدادي الحضاري».

ودّعنا محاضرنا ثم واصلنا المشي خارج القاعة، كانت الساعة التاسعة مساءً، وقد أعتمت السماء، ثم حركنا سياراتنا واتجهنا إلى بيوتنا لأخذ قسطنا من النوم، بعد سماع محاضرة قلّ مثيلها.

(3)

أكّد لي أصدقائي في أحاديثهم، وهم يرتدون وزراتهم من أزياء المهرة التقليدية، أن أول نصوص خط المسند اكتشفت قبل ثلاثة آلاف سنة، وقد أشارت إلى اليمن باسم يمنت أو يمنة، وتوجد تلك النقوش حتى الآن في متاحف كثيرة في أوروبا، وبين أكوام الآثار المكتشفة التي تحافظ عليها مؤسسات يمنية ودولية مختصة بالحفاظ على التراث الإنساني، كما تشير تلك النقوش إلى دلالات واضحة عن الممالك التي حكمت اليمن.

كان واضحًا من نقاشي معهم أنّ اهتمامي يتركز حول مملكة سبأ ومملكة حِمْيَر، وفي إحدى جلساتنا أطرقت هنيهة مفكرًا، وأكدت لهم أن اهتمامي يبلغ أشده عندما يتحدثون عن سدّ مأرب الذي اعتبره العالم القديم أعجوبة من أعاجيب الكون، كما بينت لهم بنبرة جادة أنني شديد الغبطة بما يقولونه عن تحكم اليمن القديم بطريق التجارة العالمية البحرية والبرية، خاصة البرية التي أُطلق عليها اسم «طريق البخور» التي اشتهرت بتجارة العطور والتوابل، ومئات المنتجات الأخرى.

كنت أحسّ بمشاعرَ من الفخر تغوص في عروقهم، عندما يتحدثون عن بلدهم وما قاله القدماء عنه في الماضي البعيد، وكان ضاري يستنجد دومًا بوصف اليونان لليمن باليمن السعيد.

سألتُه عندما سمعتُ هذه العبارة في إحدى جلساتنا:

«هل ذكر كُتّاب اليونان القدماء شيئًا عن سُكان اليمن؟».

نظر إليّ في دهشة قائلًا:

«أجل وأكدوا أنَّ اليمن أصلُ العرب».

اندفع بعدها بالحديث في الموضوع نفسه، وبيَّن بنبرة ممزوجة بالفخر أن أهل اليمن توارثوا هذا التميز جيلًا بعد جيل على مرّ التاريخ، منذ بدء وجود العرب العاربة في القسم الجنوبي من الجزيرة العربية منذ 1300 سنة قبل الميلاد، وقد عرفوا بالقحطانيين نسبة إلى جدهم قحطان، وهو في الوقت نفسه جدّ سبأ الذي نُسبت له مملكة سبأ، كما أنَّ حِمْيَر وكهلان هما من أبناء سبأ.

كنت أصغي إليهم في جلساتنا، وأسجل ما يقولونه على أوراقي، ومع الأيام أحسست أنني أنغمس بأفكارهم، وأصبحت على إدراكٍ كامل بأنساب العديد من قبائل اليمن. وذات يوم تدخل صارمٌ قائلًا:

«بعد قحطان حكم ابنه يعرب اليمن الموطن الأول للعرب».

وهنا وجدتني أسأل صارم عن دور قحطان في تاريخ اليمن:

اجتاحته ذكرياته في اليمن وإرهاصات الماضي وأجاب قائلًا:

«إنّ قحطان والد العرب الجنوبيّين، ومؤسّس اليمن، ومن أبنائه «يعرب»، وإنّ «يعرب» هو أول من حكم اليمن وساهم في تطوره، وتقدمه على مدار التاريخ القديم».

انفرجت أسارير داغر وعلق على هذه المعلومات قائلًا:

«نحن محظوظون لأنّ اليمن من كنوز الحضارة الإنسانية، حصلنا على إرث من أجدادنا شواهده ما زالت متعة الناظرين حتى الآن، قلَّ مثيلها في العالم أجمع، تُعتبر من العجائب الإضافية للعجائب السبع».

أقنعتني مقولة داغر، لكنني سعيت إلى معرفة المزيد عن إنجازات اليمن الحضارية، وفي لحظة هتفت في نفسي قائلًا:

«أريد المزيد من المعلومات».

رفعت صوتي وبيّنت مطلبي على مسمع من الجميع، فجأة أجابني الثلاثة بمعلومات وافية مترابطة الكلمات، كانت لديهم طرقهم في طرح المعلومات، لم يكن لدي رأي يتعلق بما يقولونه، سلطت عيني عليهم وأنا أمسك قلمي بيدي وأسجل على أوراقي ما أراه مهمًّا للتسجيل.

كنت أسمع في أحاديثهم صدى أصوات جدودهم، وجلجلة سيوفهم، وصوت جريان الدماء في ساحات القتال، كما سمعت أيضًا صدى أصوات الشعراء وهم ينشدون أبياتًا عن الانتصار أو الانكسار تبعًا لنتائج الوقائع التي تسجلها الجيوش بأحصنتها العربية الأصيلة التي تسعى دومًا لتحقيق أفضل النتائج، وبعث الحمية في النفوس.

اتسع الحديث عن أهمية هذا الجانب في جلساتنا، واتفق أصدقائي على اشتهار العرب بالشعر والخطابة طيلة أيامهم القديمة إلى الوقت الذي تعلموا فيه الكتابة، كما تميزوا بالغزو وإشعال الحروب بين القبائل المتناحرة، ومن أشهر حروبهم حرب البسوس التي استمرت بين أبناء العمومة من قبيلتين من قبائل العرب، ودامت لمدة أربعين عامًا.

سرعان ما قال ضاري:

«اشتهر الرواة العرب بذكر عدد كبير من هذه الحروب، وكانوا يردّدون تفاصيلها بعبارات ممزوجة بالشعر والغناء، وأناشيد الحماسة، والعزف

على الربابة، وبعد ما استخدمت الكتابة، كتبوا عنها ما يليق بها من مخطوطات بخط اليد».

***

كان الوقت يمضي بطيئًا وألسنة أصدقائي تلهج بحكايا ممتعة بنفحة عاطفية متدفقة يتحدثون فيها عن المملكة الحِمْيَرية التي قامت على أنقاض الممالك اليمنية القديمة مثل: مملكة أوسان ومملكة حضرموت ومملكة سبأ وغيرها من الممالك الأخرى.

تأثرت كثيرًا بالحكايا التي يرويها أصدقائي، وبيّنت لهم أنّ المعلومات التي تعنيني تتعلق بالقبائل الحِمْيَريّة لتشوقي الزائد لمعرفة دور مملكتهم في تاريخ العرب الحضاري، ولكي أبيّن للأجيال التي تنتمي لهم بالمهجر على اتساع العالم أنَّ جذورهم ممزوجة بدماء أجدادهم من قبائل حِمْيَر حضرموت، ووجهت كلامي إلى أصدقائي بنبرة فكهة قائلًا:

«إني أفتخر لأنَّ دماءَهم تسري في عروقي».

تدخَّل أصحابي بجملٍ ساحرة عبروا بها عن فخرهم بانتمائي إلى جذورهم.

في لحظة رفع صارم يده اليمنى وبين بحركة منها أنه يريد أن يقدم رأيًا مهمًّا، وفي الحال قال لي بنبرة جادة وعيناه تبرقان:

«تسقُّط أخبار تاريخ المملكة الحِمْيَرية وحدها لا يكفي، لا بدّ من تعريف الأجيال المعاصرة بنبذة عن مملكة سبأ، وذكر الملكة بلقيس، المرأة التي لها مكانة كبرى في تاريخ العالم القديم».

وافقت على اقتراحه شريطة أن لا أغمر سطوري بروايتها الأسطورية وأقع فريسة لخرافات الجنّ، أريد فقط أن ألفَّ حكايتها بوشاح واقعي، وأن أحرز الكمال في كل حرف أكتبه عنها.

***

صحوت ذات صباح على صوت صارم وهو يدق على باب منزلي بالسالمية، فتحت له الباب ووجدته أمامي. برر حضوره مبكرًا بتسليمي مخطوطة قديمة نادرة يحتفظ بها في مكتبته الشخصية، وقد ورثها عن جدّه لأبيه، بين دفتيها معلومات أساسها النقوش السبئية والحِمْيَرية المكتوبة بخط المسند، إضافة إلى الآثار السبئية والحِمْيَرية المادية المنتشرة في أماكن مختلفة من اليمن المعاصر، يريدني أن أطلع عليها، بعيدًا عن ترهات الأساطير الخرافية، وفي الحال سلمني المخطوطة وأدخل الغبطة على قلبي، ووعدته أن أسجل المعلومات التي تهمني، وأعيدها له حال انتهائي من قراءتها.

صوبت له نظرة تُعبّر عن شكري له، وأكدت له أن أعصابي وصلت إلى أقصى درجة من الارتياح لأنَّ معلومات المخطوطة خالية من الخرافات الأسطورية، ثم قال وهو يقف أمامي والضباب الشتوي المعتم يخيم على كلّ أنحاء السالمية:

«أنا مثلك لا تجذبني الخرافات الأسطوريّة».

أومأت برأسي في بطء، وقلتُ:

«هذا ما أعرفه عنك، أنت مثلي تُرضيك متعة المعلومات الحقيقية».

(4)

استغرقت قراءتي للوثيقة فترة طويلة من الزمن، وأعدتها إلى صارم بعد ثلاثة أشهر من تسليمها لي، اقتربت منه في مقهى البركة، وشكرته لأنه أتاح لي الفرصة للتعرف على مجرى أحداث اليمن القديم، ثم سألني:

«هل أحسنت انتقاء المعلومات التي تهمك منها؟».

فأجبته: «انتقيت منها المعلومات التي تهمني وضممتها إلى أوراقي، ونقشت بعضها في ذاكرتي وأصبحت جزءًا مهمًّا مما أكتبه عن اليمن السعيد».

دنا موعد وصول ضاري وداغر، وفي لحظات قليلة اكتمل عقدنا، وأخذنا باحتساء الشاي الممزوج بالنعناع الأخضر، وأعلنتُ على الفور مبتهجًا بأنني أعدتُ الوثيقة إلى صارم بعد أن أدمنت على قراءتها، حملتها بين أصابع يدي اليمنى، ووضعتها أمام صاحبها.

بعد ذلك سأل ضاري:

«هل وجدت فيها ضالتك بعيدًا عن الخرافات الأسطورية».

فصوبت إليه نظرة يستحقها السؤال، وقلتُ:

«أجل، انكشف لي في الوثيقة كلّ ما أردت معرفته عن مملكتَي سبأ وحِمْيَر، وفتحت طريقًا واسعًا يوصلني بهم، وأشعر الآن أنني أعيش معهم».

***

أدركتُ مما قرأته في الوثيقة أن مملكة سبأ، هي إحدى الممالك العربية التي نشأت في اليمن القديم، في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وابتدأت شهرتها منذ القرن العاشر قبل الميلاد. وسبأ هو اسم قبيلة من القبائل القديمة، سرعان ما أصبحت أقوى مملكة حكمت في اليمن، وحدت قبائله وأقامت حكمًا «فدراليًّا»، واشتهرت فيها الملكة بلقيس التي ما زالت معالم مملكتها الأثرية ماثلة للعيان حتى الآن.

قُلت لأصدقائي بنبرة عاطفية: سمعت صدى صوتها في المخطوطة المليئة بصور النقوش القديمة، وفي صور آثارها المادية، وتأكد لي أنها كانت تعشق الفنّ المعماري، وتحث شعبها على بناء المباني الممتدة طوابق عدّة إلى أعلى، واهتمت ببناء المعابد الوثنية التي كانت تتجلى فيها زخارفها الجميلة، وأدركتُ من صور المخطوطة أنها مطلية بالحجارة الكريمة، وعليها آثار رسوم للقمر والنجوم والشمس التي كانوا يعبدونها خاصة نجمة الصبح، كما اهتمت ببناء القصور، وخاصة قصرها المعروف بعرش مأرب، الذي أقامته على مقربة من صحراء الربع الخالي، ولم تغفل اهتمامها ببناء السدود التي بلغ عددها في عهدها أكثر من ثمانين سدًّا، من ضمنها سدّ مأرب الذي يعتبر من أوائل السدود التي شيدت في العالم القديم، وتمّ تشييده في القرن الثامن قبل الميلاد، وتمّت توسعته وتعليته على مراحل، وتمكّن اليمن بهذا السدّ من أن يطوّر الريّ، ويحول مأرب على اتساعها إلى حدائق غناء بألوان زاهية ورائحة زهور تبعث الأمل في النفوس.

***

ذات يوم بينما كنا نحتسي الشاي في مقهى البركة، ذعرتُ عندما تحدث داغر عن انهيار سدّ مأرب، وقال بصوت حزين:

«انهار رغم ضخامته في القرن الخامس الميلادي، وانهياره كان بداية مرحلة مأساوية في تاريخ مملكة سبأ».

وأضاف قائلًا:

«ذكرته النقوش القديمة، وتمكن به أجدادنا من تلبية احتياجاتهم من الماء والغذاء، حتى إنهم حققوا الاكتفاء الذاتي مما يلزمهم من محاصيل مهمةن ووفروا احتياجاتهم الأساسية الأخرى لمواصلة دورة الحياة الطبيعية».

عند ذلك سألت:

«وماذا حصل بعد انهيار السد؟».

فأسرع صارم إلى القول بحزن واضح:

«جفّت الأرض وأصبحت جرداءَ خاليةً من الحياة، ذبلت الأشجار والأزهار، وأصبحت مأرب صحراء قاحلة، كصحراء الربع الخالي القريبة منها».

دقّ ضاري يدًا بيد، وقال:

«انتشر الجوع والفقر، وهاجر اليمنيون إلى خارج اليمن، وخلا وادي حضرموت من الناس».

تمتمت بصوت خفيض:

«ما كان بوسعهم فعل أيّ شيء غير الهجرة».

سمعني صارم وأخذ يكرر بعض الكلمات:

«الموت أهون من الهروب من الوطن».

وأضاف: «هجرة القبائل اليمنية إلى الخارج، ما لبثت أن أصبحت من أهم الهجرات في التاريخ، ولا ننسى كلام محاضرنا الجزائري في دار الآثار الإسلامية الذي بيَّن فيه أنه ينتمي إلى قبيلة حضرمية هاجرت من اليمن يوم انهيار سدّ مأرب، واستقرت في المغرب الأوسط الذي يُسمى في زماننا الحالي الجزائر».

أثار دهشتي سكوت داغر، التفتُّ إليه، وسألته بنبرة جادة:

«هل عاشت مملكة سبأ أزمة صعبة أخرى غير انهيار سدّ مأرب؟».

أجابني:

«من أعقد أزمات مملكة سبأ احتلال الحبشة لليمن لفترة طويلة، كانت تعلو حدته على مدى الأيام ويؤثر سلبًا على كلّ مقومات الحياة».

قلتُ بصوت مدوٍّ:

«تابعت كلّ ما كتب عن الاحتلال الحبشي لليمن، في مخطوطة صارم، وشعرت شعورًا مفزعًا لتطوراته وأحداثه».

اتسع مدى حديث أصدقائي، وتهت معهم في مسارب الاحتلال الحبشي بكل ما فيه من ظلم وإذلال لأهل اليمن.

(5)

بينما كنت أجلس مع أصدقائي الثلاثة ذات مساءٍ في منزلي في حي السالمية، نظر صارم في وجهي، وقال وهو يجلس بجانبي مسترخيًا:

«تخصصت بدراسة التاريخ القديم وطُفت فيه بالبحث في مدارات كثيرة، ولم أجد بين مشاهير الشعوب شعبًا حقق في أيامه اكتفاءً ذاتيًّا في ما يحتاجه من غذاء وكساء كما تم في مملكة سبأ».

وسرعان ما قال داغر:

«لا تنسَ دورها الكبير في تطوير التجارة الداخلية على مستوى جزيرة العرب والدول الأخرى المجاورة لليمن، وكذلك تحكّمها في الطرق البحرية التي انطلقت فيها بواخر مملكة سبأ نحو أعتاب موانِئ كثيرة شرقًا وغربًا».

نظرت إلى صارم، فأومأ برأسه في بطء، وقال:

«ماتت بلقيس وانتهى عهدها، وانغمس اليمن بالحزن، في وقت ازداد فيه المحتل الحبشي في قسوته ووحشيته، وملأ الفزع قلوب العاديين من الناس».

***

لاحظت من كلام أصدقائي، أنهم تعصف بهم رغبة جامحة للتحدث عن المملكة الحِمْيَرية التي أسسها الملك ذو ريدان الحِمْيَري، قبل بدء

التقويم الميلادي بنحو قرن من الزمان، وكانت ظفار على سفح جبل ريدان عاصمة لها.

رفع صارم إلى فمه كأسًا من الشاي الممزوج بالنعناع الأخضر، وارتشف منه عدة رشفات متتالية، وردد على مسمع الجميع قائلًا:

«أريد في البداية أن أبيّن معلومة مهمة، مفادها أن المملكتين السبئية والحِمْيَرية تنتميان إلى الجد الأقدم حِمْيَر، وظهورهما باسمين مختلفين لا يؤثر على جذورهما العربية المشتركة».

ران صمت مطبق علينا، ثم التفت المتحدث نحوي وأضاف بكلمات متصلة:

«اجتمع ذات يوم كبار قادة جيش المملكة الحِمْيَرية في عاصمتهم ظفار، وكان محور حديثهم الاحتلال الحبشي لليمن، التقطوا أنفاسهم وتعاهدوا على تحرير بلدهم من عدوهم».

ثم أضاف مستطردًا:

«شق أحد القادة واسمه سيف بن ذي يزن طريقه بين زملائه، وأصبح قائدهم الأعلى، وتسلح بخطة لطرد الأحباش من اليمن».

كان يشد على أذرع قواده وهو يتحدث معهم، وصوته يزمجر كصوت الأسد، مشوا خلفه، وتشبثت به الأيدي.

والحق أنه ما كان يمكن أن يتبوأ منصب القائد الأعلى أي حِمْيَري غير سيف بن ذي يزن، فهو الأكثر كفاءة من كلّ كبار قومه.

اتفق أصدقائي على رأي واحد مفاده أنّ القائد سيف الحِمْيَري، لم يطأطِئ رأسه للأحباش كما فعلت بلقيس في وقت حكمها، وبدأ الاستعداد لمحاربتهم بعد احتلالهم بلاده طيلة فترة طويلة من الزمن، وفي فترة قصيرة أعد جيشًا كبيرًا قلّ مثيله، كان جنوده يطفحون حماسة للقتال، سدّدوا للعدو ضربات متلاحقة، وحققوا النصر في معركة حضرموت ومعارك أخرى كثيرة، وبالتالي حرروا كل أرض اليمن. وتشير النقوش الأثرية بخط المسند إلى أن القائد سيف الحِمْيَري خاطب شعبه يوم النصر قائلًا:

«إننا نحوم حول الأحباش كما يحوم الصياد حول فريسته، النصر هو أثمن ما أقدر عليه، وفي وسعي أن أجعل الأحباش عبيدًا للعرب في كلّ أرض العرب».

استقرت عيناي على وجوه أصدقائي الثلاثة وهم يصفون انتصارات سيف بن ذي يزن، وصفوا دخوله الحبشة بعد هزيمة جيشها، كان يمتطي جوادًا عربيًّا أبيضَ، بعرف طويل، ويختال بقامته الصلبة أمام موكبه المهيب.

لم يكن في مقدور أصدقائي السكوت، تحدثوا بقصص عجيبة عن شجاعة سيف الحِمْيَري، وبطولات جيشه في ساحة القتال، وفي لحظة وضعت قلمي جانبًا ورفعت رأسي إلى أعلى، وفاجأت أصدقائي بطلب فترة قصيرة للراحة.

أومأ ضاري برأسه موافقًا، وأشار بإصبعه للبقاء جالسًا في مكاني، وتناولنا معًا كؤوسًا عدّة من عصير البرتقال.

***

واصل أصدقائي حديثهم عن القائد الحِمْيَري المظفر، ووصفوا دخوله المدن الحبشية واحدة تلو أخرى، ثم وَضَعَ كلّ الحبشة في قبضة يده، وانحنى له ملكها وقادتها وشعبها، وأخيرًا، اختار الملك المنتصر أفخم القصور الحبشية، دخله في موكب قلّ مثيله، واصطف حوله جمهرة من القُواد والنبلاء والأمراء، حيَّوْه تحية عسكرية، وقدم له الأحباش الهدايا من الياقوت والمرجان والذهب الخالص بأحلى النقوش والأشكال، وقدموا له ملابسَ من القصب والحرير من أجود الأصناف.

جلس القائد الحِمْيَري فوق أريكة عالية مطعمة بخشب الأبنوس الإفريقي وبخشب شجر بخور الصندل وشجر اللبلاب، وجلس عظماء الحبشة على مقربة من قدميه، كانت قلوبهم منفطرة، يكاد يطير صوابهم من شدة الانكسار، ويتصاعد اللهب من صدورهم لأن القبائل الحِمْيَرية انتصرت عليهم.

***

التقيتُ مع أصدقائي ذات مساء من أيام الشتاء الباردة في مقهى البركة، وكنا نرتدي دُثرًا نستدفِئ بها من البرد، وبينما كنا نشرب الشاي بأقداح كبيرة مخلوطًا بالنعناع الأخضر، رفعت عينَيَّ إلى وجه صارم، وتساءلت:

«هل محاضرنا عثمان السعدي الجزائري، طلب منا أن نتعرف على الملك الحِمْيَري سيف بن ذي يزن بسبب انتصاراته على الأحباش؟».

فرد قائلًا:

«أجل، لأن انتصاراته أهم انتصارات حققها العرب في تلك الأيام الماضية التي كانوا فيها من عبدة الأوثان».

ثم تبادلت مع أصدقائي النظرات، وأردت أن أعرف ماذا فعل بعد جلوسه في القصر الحبشي، لأنَّ هذه المعلومات لم تكن متوفرة في مخطوطة صارم، صمتنا بعض الوقت، وبينما كنت أفكر بطرح سؤال على أصدقائي، سأل ضاري قائلًا:

«ماذا جرى للقائد المنتصر، عندما أحنى قادة الأحباش رؤوسهم أمامه وأشعروه بانهزامهم؟».

صمت الجميع، ما عدا صارم المؤرخ الفذّ، فقد تدارك الأمر، وأشار بيده أنه يريد التحدث. تلهفتُ لسماع حديثه، وفجأة بيَّن أنّ القائد المنتصر بقي في الحبشة طوال شهر كامل، ثم قرر العودة إلى اليمن بموكب كبير يبهر الأنفاس ويليق به كقائد منتصر، ثم أكمل حديثه موضحًا توديع أهل الحبشة لسيدهم الجديد:

«تقاطر أهل الحبشة زرافات إثر زرافات لتوديعه وإلقاء نظرة على عرشه المحمول على أكتاف مائة رجل من أصحاب العضلات المفتولة الأشداء من أقوى الجنود المقاتلين».

ما هي إلا أيام حتى وصل القائد الحِمْيَري إلى بلاده التي حرّرها من نير الاحتلال، عاد إلى وطنه وأخذ يتجول في مدن وقرى كثيرة، أنعم على سكانها بعطايا كثيرة، ثم وصل موكبه مأرب في صباح يوم قائظ. وفي الحال أقام في عرش مأرب قصر الملكة بلقيس إحدى عجائب اليمن النادرة، وبعد وقت قصير أحاط به الأعيان والنبلاء وكبار القواد، رحبوا به وباركوا عودته المظفرة بعد النصر، وتوجوه ملكًا عليهم وقدموا له وجوب السمع والطاعة.

كنت متلهفًا لسماع المزيد عما تمّ في القصر، وطلبت من صارم أن يُكمل حديثه، ودُهشت إذ علمت من ضاري وداغر أنّه يعرف الكثير من المعلومات النادرة عن الملك الحِمْيَري سيف بن ذي يزن. وسرعان ما أكمل حديثه بقوله: كانت عمامته حمراء اللون تعلو رأسه، يهزّها بين الحين والحين كلما سمع مديحًا من أحد المتكلمين، وفي لحظة أشار الملك بسبابته إلى كبير الحجاب، وفي الحال جرت الموسيقى في مجرى دم الجالسين، ازداد العزف علوًّا من مئات العازفين، وتلذّذوا بترديد الأغاني الحِمْيَرية. فجأة بدأ الرقص، عشرات الراقصات تمايلن على صوت الموسيقى، وكان الملك الجديد في مكانه متربعًا على أريكته العالية وبجانبه ثلة من حراسه الأوفياء.

انتهى حفل السمر في ساعة متأخرة من الليل، ثم وقف الملك وانتهى بوقوفه الحفل، ومرت بضع لحظات بطيئة قبل أنْ يتّجه صوب الباب الرئيس، ودون أن ينبس بكلمة دخل غرفة نومه، وعندما انبلج النهار

انطلق موكبه نحو صنعاء القديمة، وبعد عدة أيام وصلها وأقام حتى وفاته في قصر غُمدان وهو من عجائب قصور العالم في ذلك الزمان.

أنهى صارم حديثه قبل منتصف الليل بقليل، في وقت توقف فيه انهمار المطر، وبعد هنيهة اقتربنا من باب المقهى وخرجنا، ثم اتجهنا إلى منازلنا في ساعة متأخرة من الليل.

(6)

في صباح اليوم التالي، رنَّ جرس الهاتف في منزلي، وكان صارم على الطرف الآخر من الخط، دعاني لزيارته في منزله في مساء الغد، بمناسبة زيارة والده له، لأول مرة بعد أن بدأ العمل بالكويت، استجبت لدعوته وتابع قائلًا:

«إنّ والدي من الإخباريين المعروفين في اليمن، له أبحاث ومحاضرات مليئة بالمعلومات الأثرية القديمة التي تهمُّك، وستسمع منه الكثير الكثير».

كانت السماء صافية عندما أقبل مساء يوم الدعوة، وعندما نظرت من شرفة منزلي، وجدت الأرض جافة من الأمطار التي انهمرت بغزارة على مدى ثلاثة أيام، وقررت المشي على قدميّ إلى بيت صارم، وكذلك فعل ضاري وداغر لأننا كلنا نعيش في حي واحد.

التقينا ثلاثتنا أمام منزل صارم، بعد خطوات محدودة من المشي على الأقدام، دلفنا إلى الداخل واستقبلنا والده بابتسامة رسمها بعفوية على اتساع وجهه. جلسنا في صالة الجلوس، وكانوا كلّهم يلبسون وزرة منطقة المهرة، قدمنا صارم لوالده، وقدمه لنا باسم جمال باوزن، وطلب منا أنْ نناديَه باسمه دون إضافات منا، لأنه ما زال في الخمسين من عمره.

لزمنا الصمت بعض الوقت دون أن نتفوه بكلمة واحدة، ثم دارت عجلة الحديث بسرعة زائدة، وراقتني قدرة جمال على فتح باب

الحديث، والتنقل في ذكر جوانب مواضيع كثيرة متناسقة يجد دومًا متسعًا للحديث عنها، وتملكتني الدهشة عندما شعرت بقدرته على انتزاع الوقت اللازم منها للفكاهة والتندر، والغوص في أعماق التاريخ الراكدة.

استهل حديثه بإلقاء نظرة عامة على اهتمام اليمنيّين القدماء بالتجارة البرية والبحرية منذ الألفية الأولى قبل الميلاد، كانت قوافلهم تجوب المناطق العربية الجنوبية، ويجوب أسطولهم عشرات الموانئ القريبة والبعيدة.

أسند جمال ظهره إلى وسادة كبيرة، ثم أرخى جذعه، ونطق قائلًا:

«بَحثت مطولًا بخبايا التجارة عند اليمنيين، وأجزم أنهم أثبتوا مهارتهم وإخلاصهم في التجارة، وأثبتوا فيها النجاح في كلّ المجالات، وحصلوا على لقب أهم تجار العالم القديم».

ولإشباع فضولي سألته عن القهوة التي نشرها اليمن في كلّ مكان في العالم.

في الحال ابتسم صارم وقدم بن الكبوس اليمني للمرة الرابعة، وكان أحضره معه والده من اليمن، وعبر عن أهمية هذا النوع من القهوة لأنه يدفعه إلى راحة البال والشعور بالتفاؤل والسعادة الغامرة.

من حسن الحظ أنّ والده جمالًا على معرفة بتاريخ القهوة في اليمن، فقد اكتشفها أهل بلده بين أشجار الحبشة عندما لاحظوا أنَّ الطيور والمواشي تتمتع بحيوية خاصة عندما تأكل حبوب القهوة، وبدؤوا زراعة شجيراتها في الأراضي الزراعية اليمنية بحلول القرن السادس عشر

الميلادي. بعدئذ صدروا حبّها الأخضر في البداية إلى تركيا، وعلّموا الأتراك كيف يتم تحميص حبوب القهوة وطحنها، ومنها تمّ تصديرها إلى اليونان وألمانيا وإيطاليا وبقية الدول الأوروبية وكلّ دول العالم.

استمر الحوار طويلًا حول القهوة، وسرعان ما انصاع داغر للتاريخ من جديد، وأرسى مجاديفه في إيطاليا، وبين أن قهوة موكا الإيطالية Mocha قد سُميت بهذا الاسم تيمنًا باسم ميناء المخا Mocha اليمني الذي كانت تُصدَّر منه القهوة إلى جميع دول العالم.

أدركنا كلنا أهمية هذه المعلومة، وتساءل داغر:

«هل ثمة مفاجأة أخرى في مجال القهوة؟».

فأجبته:

«لدي مفاجأة من ألمانيا أنقلها عن ابني وليد. لقد سنحت له الفرصة أن يزور مدينة لايبزيغ الألمانية، مدينة الفن والطبيعة الساحرة، وتفاجأ ابني بوجود متحف فيها للقهوة يحتوي على عدة قاعات تعرض كل ما يتعلق بتاريخ القهوة، وفيها ذكر لدور اليمن المهم في تقديم القهوة للعالم أجمع.

وصلت المفاجأة إلى ذروتها عندما وجد ابني في المتحف مقهى اسمه «بجانب شجرة البن العربي»، وتلفظ بالألمانية «زوم أرابيشن كوفي باوم»، ووجد على أعلى واجهة المقهى الأمامية منحوتة كبيرة من الرخام الطبيعي الأبيض، عليها مجسم لشجرة يتدلى من أغصانها حبّ بنٍّ يمني،

وبجانب الشجرة، تمثال من الرخام أيضًا، لرجل عربي يعتمر عُمَّة عربية على رأسه، وبجانبه إبريقٌ كبيرٌ من الرخام لتقديم القهوة.

وتشير المعلومات المتوفرة في المقهى إلى أنه افتتح أبوابه لأول مرة قبل أكثر من ثلاثمائة سنة، ويعتبر أحد أهم مقاهي أوروبا، وهو شاهد على التاريخ وقبلة لمشاهير أوروبا، وما زال يقدم القهوة حتى الآن، وارتشفها في فناجينه الموسيقار البولدني فريدريك شوبان، والإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت وغيرهما».

توقفت قليلًا عن السرد، وأحسست بسعادة أصدقائي للتعرف على الدلالات الضمنية للمفاجأة التي حدثتهم عنها.

في تلك اللحظة نهض صارم واقفًا، وسارع إلى تسليم كل واحد منا هدية من والده أحضرها من اليمن، وهي عبارة عن علبة من بن الكبوس اليمني الطبيعي الذي لم أسمع به من قبل. وفي نفس الوقت قدم لنا عدة فناجين لارتشافها قبل العودة إلى بيوتنا.

أفاض الجميع بالحديث عن بن الكبوس، وعقبت على كلامهم وعيني على فنجان القهوة المثبت أمامي:

«مذاق هذا البن، يختلف عن مذاق أي نوع آخر من البن الذي ارتشفته في حياتي».

عند هذا الحد من الكلام قَلَبنا صفحة القهوة، وتابعنا الحديث عن اليمن القديم، وبعد برهة سرعان ما قلت بنبرة صوت عالية:

«غدًا ألقاكم في بيتي لإكمال حديثنا».

وتمّ الاتفاق بعفوية على اللقاء في مساء الغد.

***

وصل ضيوفي في وقت كنت أستمع فيه من المسجلة إلى أغنية «أقول له إيه» للمغني الحضرمي «أبو بكر سالم»، فرحوا كلهم لسماعها، وفور جلوسنا في صالة الجلوس واصلنا سماع الأغنية، وعندما انتهت ذكرتهم بأن المغني الكبير حصل بسبب هذه الأغنية على جائزة منظمة اليونسكو الدولية، كثاني أحسن صوت في العالم في طبقات الصوت.

بعدها وضعت في المسجلة أغنية «أمّي اليمن»، وأكد ضاري أنّ المغني الحضرمي غناها في قاعة ألبرت هول الشهيرة في لندن، أكبر مسارح العالم الفنية، واعتبرها جمهرة كبيرة من المستمعين أنها أغنية جميلة من نفس مذاق العسل الدرعي اليمني.

بعدها سمعنا أغاني كثيرة لنفس المغني، منها أغنية «بلغ لي إشارة»، وأغنية «أنا في كلّ المدن مريت».

فوجئت أنَّ جمالًا يعشق هذه الأغاني، وما إن أوقفت المسجلة حتى أرفق القول بالحركة، وفي الحال هزّ كتفيه وقال:

«أستمتع بغنائه كثيرًا حين يغني في الجلسات الخاصة، وأطفح نشوة في دمي عندما تخرج من شفتيه كلمات الشعر الحضرمي الأصيل».

اعتدل صارم في جلسته ونظر إليّ بعينيه الواسعتين. قال بصوته الجهور:

«نحن لسنا هنا لنقضي الليل مع أغاني «أبو بكر سالم»، بل لنسمع ما لدى الوالد من معلومات عن أجدادنا أهل اليمن القدماء».

لم يكن في وسعي إلا الموافقة على مطلب صارم، وفضلت القول بأنني أحبذ أن يحدثنا عن النهضة العمرانية التي اشتهر بها اليمن من أيام سبأ وحِمْيَر.

من غير أنْ أنتظر جوابًا قال جمال:

«أهل اليمن حضر من أقدم الأزمنة، ومن أسبق الدول إلى التمدن؛ شادوا المدن وبنوا ناطحات السحاب الطينية ذات الطوابق العالية، كما ضربوا النقود، ونقشوا عليها بخط المسند أسماء ملوكهم، ورسموا صورهم بجدائل شعرهم الطويلة، وزينوها برموزهم الوثنية».

وهنا بيّن ضاري أنّ المصادر العالمية تؤكد أنّ اليمن أول دولة أقامت في مدنها ناطحات سحاب؛ أي البنايات العالية ذات الطوابق المتعددة.

وبنبرة هادئة، خاطبني صارم بلياقة زائدة موضحًا أن والده جمالًا نشر بعض البحوث التاريخية عن بدايات النهضة العمرانية اليمنية، وبدون تردد استجاب جمال لما قاله ابنه، وأخذ يجول ببصره على مهل، من فوق وسادة ضخمة كان يجلس عليها، ثم انطلقت صيحاتي تعبيرًا عن فرحي بالمعلومات التي ينقلها لنا جمال، ودون أن تفارقني أوراقي للكتابة عليها، أخذت بكتابة ما يرد من معلومات على مسمع من الجميع.

رفع جمال عينيه في وجوهنا، وقال:

«توفر لليمن تضاريس طبيعية متنوعة، ساهمت في تطوير النهضة العمرانية وفي جعل اليمنيين من البنّائين المهرة».

ثم تابع موضحًا أنّ اليمنيين أتقنوا التعامل مع الحجارة والطوب والنقش وكل مستلزمات بناء المنازل والمعابد والقصور والسدود وقنوات الري، وتحوي المواقع الأثرية القديمة أمثلة عمرانية كثيرة يمكن تلمسها في الزمن الحالي، خاصة في صنعاء القديمة ومأرب وتريم وسيئون وشبام، وأماكن أخرى كثيرة.

وتساءل صارم قائلًا:

«وماذا عن القصور؟».

أجاب والده بما يستشف من كلامه، بما يفوق التصديق، بأنها كانت مرصعة بالذهب والفضة من الداخل والخارج، ومليئة بالرياش والحرير والأسرة والموائد والأواني المزينة بصحائف الذهب والحجارة الكريمة.

أومأت برأسي مبينًا افتخاري بمجد اليمن القديم، ولم أستطع التفوه أكثر من همسة بالكاد سمعها جمال الذي استمر في شق طريقه في الزمن القديم. أجال البصر بين الجالسين ثم قدم لي دعوة لزيارة اليمن الحديث، لكي أتعرف على المواقع الأثرية التي اكتشفت حديثًا.

أدرت وجهي له ووعدته أن ألبي دعوته في أقرب وقت ممكن.

لفت نظري قوله أنه سيُعرّفني على آثار مادية كثيرة، وبوجه خاص على النوافذ التي كانت تُصنع بالزجاج الملون بألوان مختلفة لإضاءة المنازل،

ولا تـزال هـذه المـادة موجـودة إلـى اليـوم، وتسـمى باللغـة القديمـة «المصبح».

بعدها استدرك جمال قائلًا:

«سـوف تتعـرف علـى اللغـة الحِمْيَريـة القديمـة، وتلامـس نقـوش خـط المسند، وتشاهد بعض ناطحات السحاب الطينية القديمة، التي لا تـزال قائمة إلى الآن، رغم مرور مئات السنين عليها».

استهواني حديثه، ولم يكن شعوري على الإطلاق عاديًّا، كنـت أحسّ أنّني أعيش ماضي اليمن في مداه المتشابك جغرافيًّا مع صحراء الربع الخالي وبحر العرب والبحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي والخليج العربي.

توقف عن الحديث كي يعطيني بعض الوقت لكتابة ما يقوله على أوراقي، وعندما استكملت الكتابة سالته مستوضحًا عن بقايا الحضارة الحميرية:

«هل يمكنني التعرف عليها عندما أزور اليمن؟».

وأضفت: «لا أريد أن أركب مطايا السفر وأعود بخفي حنين بلا أحمال».

ضحك الجميع لتعبيري عن المطايا والرجوع بلا أحمال.

اقترب مني جمال وتابع قائلًا:

«أعدك أن تعود بأحمال ثقيلة، أكثر ثقلًا من أعمدة عرش مأرب».

وبينما كنت غارقًا في أحاديث جمال، قدمت لهم ثالث فنجان من بن الكبوس، وأرفقت به صينية من الكنافة النابلسية، وجرى بيننا نقاش موسع عن تشابه الحلويات العربية.

تنفسوا بعناء بعد إتمام أكل عدة قطع من الكنافة النابلسية، وساد الصمت وأرخى الحضور أجسادهم على المقاعد، وأخذت أتفرس في وجوههم، وفي لحظة مرت بخاطري كل كلمة قالها جمال عن بقايا آثار حضارة اليمن القديم.

أخذت أذرع صالة الجلوس جيئةً وذهابًا بعجز عن إصدار أدنى صوت، وسرعان ما لاحظت داغر يحاول أن يشغلنا بسماع الموسيقى الحضرمية، ارتفعت الموسيقى وابتلعنا آخر رشفة من بن الكبوس، وشعرت وقتئذٍ أن ما سمعته من معلومات عن اليمن يغمرني بمشاهد نابضة بمواضيع كثيرة أستمدها من مجريات الماضي البعيد.

(7)

قبل سفر جمال بيومين، جلست معه في مقهى البركة، وأوغلنا بالحديث عن زيارتي لليمن، وبينما كان ابنه صارم يستمع لنا ولم ينبس ببنت شفة، تدخل في لحظة متسائلًا عن التاريخ المناسب لي للزيارة. وفي الحال حددته وابتسمت عندما وجدته يتناسب مع برامج جمال الوظيفية.

التقطتُ أنفاسي، وشعرتُ بسعادة لأنني سوف أتعرف في اليمن على أصل العرب، وأشعر بكل الرضا لما سوف أراه من موروثهم الحضاري.

وبينما كنت أتحدّث معهما عن السفر لاحظت أن داغرًا وضاريًا يقفان عند باب المقهى، لوحت لهما بيدي، ثم دخلا وهما يشقّان طريقهما بين الطاولات المكتظة بالجالسين من رواد المقهى، وصلا إلينا، وابتسما ابتسامة واسعة، ثم تمسمرت عيناي على نادل مرّ من جانبي وطلبت منه خمسة فناجين من القهوة التركية: ثلاثة فناجين سكر وسط، واثنَيْن بدون سكر.

علق الجميع في صوت واحد، طالبين مني إصلاح ما قلته، وهتفوا في حبور:

«خمسة فناجين قهوة يمنية».

عندما عاد النادل ابتسم لنا مؤكدًا أنَّ القهوة التي يستخدمها العالم هي في الأصل قهوة يمنية، لأن اليمن أول دولة زرعت القهوة بعد الحبشة،

وهي التي اكتشفت أصول زراعتها وتحميصها وطحنها، ثم غليها على نار هادئة، وشربها في فناجين خاصة بشرب القهوة.

أسعدنا حديث النادل، وسأله جمال:

«هل أنت يمني؟».

وسرعان ما ردّ عليه قائلًا:

«أنا من غزة وجذوري حِمْيَرية من اليمن السعيد».

نظرنا إليه بإعجاب، وأعلمنا أنه طالب منتسب إلى جامعة بيروت العربية.

ارتشفنا القهوة ثلاث مرات أثناء سهرتنا في مقهى البركة، وبعد منتصف الليل بقليل خرجنا من المقهى. كان القمر يلهو في سماء صافية، ومياه الخليج العربي تتكسر على صخور الشاطئ، وبين الحين والحين تحلّق حمامة بيضاء لا تعرف النوم فوق المقهى.

سرنا ببطء نحو سياراتنا، اتجهنا نحو شارع الخليج العربي، وسمعت صرير العجلات فوق الشارع وهي تدك الأرض بقوة في دورات متتابعة.

ولأنَّ ضاريًا يهوى قيادة سيارته بسرعة عندما تكون الشوارع خالية من السيارات في الليل، فقد أومأ لنا برأسه أن نقود سياراتنا بسرعة، وقد صُدمت عندما لاحظت أن سُرعتي تجاوزت الحدّ المسموح به بحسب القوانين المرعية، فتحت عينيّ عندئذٍ، وخفضت سرعة سيارتي بما يتناسب وظروفي النفسيّة.

***

عاد جمال إلى اليمن بعد أن انتزع مني وعدًا بأنْ أزوره في بداية الربيع القادم، كانت وجهته مدينة الغيضة مركز منطقة المهرة التي تقع في الشرق من مدينة صنعاء، ووعدني بأن يزور معي عشرات المدن والمواقع الأثرية الزاخرة بآثار الحضارة اليمنية، والتي يؤمّها الزوار من كل صوبٍ وحدب.

بعد عودة جمال بوقت قصير، توفيت أمي التي كانت تعيش معي بالكويت، وشعرت بحزن شديد لم أحسّ بمثله من قبل. كنت دامع العين كالطفل الصغير على مدى أيامٍ طويلة شعرت فيها بأن قلبي على وشك التوقف، واقتفى أصدقائي الأصول في مناسبات الموت فزاروني طيلة ثلاثة أيام، وهي المدة المحددة لبيت العزاء. كانت شفاههم تتمتم بالدعاء لأمي، وانبرى لساني شكرا لهم على حُسن صنيعهم.

لا أدري ما الذي اعترى صارمًا، ليكتب عن أمي مقالة نشرها في جريدة الهدف الأسبوعية الكويتية بعنوان «معزوفات سارة عن الأرض»، وعَرَّف القراء بأن أمي تنحدر من أسرة فلسطينية اسمها «آل سيف» نسبة إلى سيف بن ذي يزن، وأنها كانت تفتخر بجذورها اليمنية، وتفتخر بجذورها الفلسطينيّة التي تمتد في أراضي عشرات القرى والمدن. وبين أنه حظي بالتعرف عليها لأنها أم أحد أصدقائه، فقد كانت تقدس كل ذرة تراب في فلسطين ولا ترضى عنها بديلا، ولا تستبدلها بعرش مأرب وكل كنوز الدنيا.

وبين في مقاله أنّ أمي كانت بليغة حين تقول له إنّ الماضي البعيد مضى وانتهى، وإنه كان يصغي بخشوع أمامها وهي تضُم قبضتها بأشد ما

تستطيع من قوة، وتتمنى أن ترى من أبناء فلسطين «سيف» يقضي على عدوه كما انتصر «سيف» الماضي على المحتل الحبشي.

كانت تغمض عينيها وتشدو بمعزوفات عن أرض فلسطين، تنسجها على منوال الشعر النبطي، وتتلوها بصوت مرتفع رغم أنها أمية لا تعرف القراءة والكتابة، ترددها مرات ومرات وتعبر فيها عن شعورها الجياش نحو كلّ شيء في بلدها، وترفع على أجنحة حروفها راية العصيان ضدّ المحتل الغاشم.

أنهى صارم مقالته بجملة مؤداها أنّ معرفة الماضي -بحسب تعبير أمّي- حظوة تغمر الحكائين لكي يتلوا على الناس حكايا قديمة مليئة بالعبر. أمّا الحاضر فليس المهم معرفة أحداثه الجارية فحسب، بل المساهمة في صنعه، وتوجيهه ورفع راية النصر.

سررتُ كثيرًا لمقالة صارم، وفور نشرها عُدت إلى وضعي العادي الذي كنت عليه قبل موت أمي. وزعت المقالة على كلّ معارفي وكتبت في أعلى الصفحة الأولى بخط يدي: «هكذا يكون الأصدقاء».

عندما التقيت بصارم بعد نشره المقالة تدافعت كلماتي لشكره، لكنه أوقفني بحركة من يده، لم أشعر في تلك اللحظة بغرابة في تصرفه، لأنه كان يقدّر أمي كأنها أمه، ثم قال بنبرة تنم عن الصداقة الحقيقية:

«كيف تشكرني وكانت لي بمثابة أمي».

عندها تمتمت بصوت خفيض عدة كلمات أفرجت عنها في تلك اللحظة:

«أمي/ سيدة الماضي والآتي/ أيامك أحلى أيام حياتي».

كنت أخفي عينيّ عن صارم عندما رددت تلك الكلمات، عبَّر في الحال عن إعجابه بها، ثم غادر المكان الذي كنا فيه على مقربة من شاطئ المسيلة المشهور بالكويت، وطلب مني أن أبقى في مكاني على مقربة من الأمواج كي أكمل القصيدة.

***

مرت الأيام الواحد منها تلو الآخر، ولم يبق على بدء فصل الربيع سوى أيام. سرعان ما تذكرت وعدي بزيارة جمال في اليمن، وبينما كنت أسجل تفاصيل المعلومات التي أريد جمعها أثناء الزيارة رنّ جرس هاتفي في المنزل. رفعت السماعة وسمعت صوت جمال على الطرف الآخر، التقطت صوته بسعادة زائدة، واستغرقت بعض الوقت في حلم من أحلام اليقظة، ذكرني بوعدي له بزيارة اليمن، وقال في تلك اللحظة:

«أطل علينا فصل الربيع ووعدتني بزيارتك لي في هذه الأيام».

أجبته:

«ما زلت عند وعدي وسوف أصل إلى صنعاء بعد أسبوعٍ من الآن».

لاحقًا اتفقنا على برنامج الزيارة، ووجدت متعة بحديثه عن حيثياتها للتعرف على الذات، والإحساس بالانتماء إلى بلاد العرب بكل ما فيها من جذور متشابكة.

***

التقيت ذات مساءٍ، بصارم وضاري وداغر في مقهى البركة بعد تواصلي مع جمال، وبينت لهم أن الحياة ستحقق لي أحلامي التي انبعثت في أعماقي منذ فترة طويلة، وبعد أيام قليلة سأكون في صنعاء، وسأرف كالطيور فوق آثارها القديمة. فرح أصدقائي الثلاثة عندما سمعوا ما قلته لهم، وفي الحال قال صارم:

«أجريتُ مع والدي حديثًا مطولًا عن برنامج زيارتك، وطلب مني أن أضيف ما أراه مناسبًا، فأضفت رحلة بحرية في بحر العرب، تصطاد فيها السّمك معه ومع أصدقائه من أهل المهرة».

ابتسمت، ولم أجرؤ على الاعتراف لأصدقائي، بأنني لم أمسك طيلة حياتي صنارة صيد السمك.

لم يسمح صارم لأحد بأن يخترق الدائرة التي تُلفع خبرته في صيد السمك، وأكَّد أنه كان مشهورًا مع أقرانه بصيد السمك الكبير، وأعطى لنا أمثلة عن نجاحاته في الصيد التي كتبت عنها صحف اليمن المحلية، كما تحدث أيضًا ضاري وداغر وبينا أن لهما صولات وجولات في بحر العرب في صيد السمك.

كان صارم يستمع لهما منحرفًا ببصره عنهما، وبادرنا قائلًا لهما وقد بدا عليه الانفعال:

«أتذكران من حصل على كأس أفضل صائد سمك في عطلة الصيف الماضي؟».

ضحكنا ونحن نرتشف القهوة، وقال ضاري في تلك اللحظة بصوت عالٍ:

«طبعًا أنتْ، أنتَ سيد البحار يا صديقي، تملأ شباكك دومًا بصيدٍ وفير».

ثم أضاف داغر:

«أشهد أنّ صنارتك لا تخطِئ أهدافها، تجوب البحر بين الأمواج وتهتز بقوة بين الحين والحين، معلنة عن صيد ثقيل».

ضحكنا من قلوبنا، ووجه صارم حديثه لي لينبئني بأن والده جمال صياد ماهر وقد علمه الصيد، ولم يفاجئني عندما قال:

«سوف تستمتع بما يصيده والدي من سمك من أجود الأنواع. تملكني الضيق لأنني سأفترق عنهم بعض الوقت»، قلت لهم هذه العبارة عندما حان وقت انتهاء جلستنا، وأخبروني ثلاثتهم بأنهم سيتابعون أخباري لأنني سأكون بين أهلهم طيلة وجودي في اليمن.

لزمت الصمت ملقيًا ببصري إلى وجوههم، ثم أخبروني قبل أن نغادر المقهى، بأنهم سيلتقون بي يوم سفري في مطار الكويت لتوديعي، ولتسليمي هدايا خفيفة لأهلهم، وحده صارم أخبرني أمامهم بأنه سيرسل لوالده نسخة من مقالته الموسومة «معزوفات سارة عن الأرض» لأن والده موثِّق، ويريده أن يحفظ المقالة مع أوراق أسرتهم المهمة.

أمّا الهدايا فهي لأولاد أخيه الأكبر: ليث ونديم وليانا، وهي عبارة عن علبة لوغو من النوع الوسط لكل واحد منهم، تتناسب مع عمره واهتماماته الشخصية.

لزم الصمت ثم أضاف:

«علّهم يبنون بحجارتها الطرية الملونة ما يحلو لهم من الأشكال العمرانية الجذابة».

ثم ضحك ضحكة عالية، وقال:

«مثل الرافعات والجسور والسدود والقصور».

ثم قال داغر على سبيل الفكاهة:

«أو مثل عرش مأرب المزين بالحجارة الكريمة».

(8)

بعد أيام، وجدت نفسي في مطار الكويت أنتظر الطائرة اليمنية المتجهة إلى صنعاء، وسرعان ما التقيت بأصدقائي الثلاثة، تبادلنا التحية، ثم أعطوني هداياهم، وفي الحال وضعتها في حقيبة ملابسي، ثم شعرت برجفة أشعر بها دوما عند السفر، ودعتهم وبصعوبة فككت يدي من أيديهم، وبينما كنت متجها لإتمام إجراءات السفر، استدار داغر لكي أراه، وتساءل:

«هل تعرف معنى مدينة صنعاء؟».

أومأت برأسي مبينًا عدم المعرفة.

فك داغر الحصار عن هذه المعلومة قائلًا:

«معناها المدينة المحصنة».

شكرته، وقلت لأصدقائي:

«ها أنا قبل السفر أحصد المعلومات التي تهمّني، وغدًا سأجمع منها الكثير في مدارات مدن عديدة».

لوحت لهم بيدي عندما كان عليّ التوجه إلى بوابات المغادرين، غابوا عن نظري، اختفوا وبقيت وحيدًا، أسمع فقط رنة صدى الأحاديث التي تبادلناها قبل فترة قصيرة.

بعدها صعدت إلى الطائرة، وغرقت في لجة من التأملات وأنا أستمع عبر الراديو المثبت أمامي، إلى باقة من الأغاني الحضرمية.

كانت السماء صافية، وأخذ الوقت يمضي، بينما كنتُ أسمع الأغاني وأنظر عبر شباك الطائرة الذي أجلس قربه، وقد انفعلت بشدة عندما كنت أدير بصري مرات عديدة في جوانب الصحاري الواسعة، التي كانت تمرّ فوقها الطائرة، وشعرت بالإشفاق على أجدادنا العرب القدماء الذين لم يعرفوا في حياتهم سوى الصحاري والجِمال التي كانت تُسمى في زمانهم سُفن الصحراء.

في لحظة، سمعتُ صوت المضيفة وهي تعلن عن قرب الهبوط في مطار صنعاء، اقتربت من الشباك ثانية وأخذتُ أنظرُ من فوق، أسعدتني رؤية الناس بحجومهم الصغيرة، ورؤية شوارعها شارعًا تلو شارع، زاد توتري لحظة الهبوط، وتمكنت من إخفائه عند سماع صوت عجلات الطائرة وهي تَدرجُ بهدوء على مدرج المطار.

وصلت في الوقت المحدّد، وأنهيت الإجراءات، وخرجت حاملًا حقيبتي إلى قاعة الوصول، أحسست بما يكفي من الارتياح عندما رأيت جمال على مقربة مني، شدّ على يدي مُرحبًا بي وتعانقنا كما يتعانق الرجال بعد غياب طويل، وظلت عيناي معلقتين به عند اللقاء، ثم رفع صوته قائلًا:

«أهلا بك في بلدك يا أخي الحِمْيَري، هنا تتشابك جذورك مع ماضي اليمن القديم».

كانت الساعة تمام السادسة مساءً عندما خرجنا من قاعة الوصول في المطار، وانطلقنا بسيارة جمال نحو فندق قصر غُمدان الواقع في منطقة

الجرداء في صنعاء، حجز فيه صديقي غرفتين واحدة له وأخرى لي، توجهنا إلى غرفتينا بعد إتمام الإجراءات اللازمة للتسجيل في الفندق، واستمتعت بمنظر المدينة القديمة المبنية وسط سهل فسيح وعلى امتداد هضبة في سفح جبل «نقم»، واكتشفت لدهشتي بقايا آثار مادية رأيتها عن بعد، أعادتني إلى الماضي البعيد، إلى آلاف السنين من تاريخ ممالك اليمن القديمة.

جلسنا بعد ذلك على شرفة تطلّ على كلّ صنعاء. أثار انتباهي في بداية حديث جمال ما قاله عن الفندق الذي سنقيم فيه، إذ بيّن لي أنه يُذكر أهل الزمن الحالي بقصر غُمدان القديم الذي يُعتبر في تاريخ اليمن من عجائب الهندسة المعمارية، ومن أول القصور التي بُنيت في العالم. ويعد سيف بن ذي يزن آخر من سكنه من الملوك.

قلتُ له مبتسمًا:

«آمل أن لا نكون آخر ضيوف يستقبلهم فندقنا فندق غُمدان».

ابتسم جمال، وأشار بيده نحو المنظر العام للمدينة، كانت آخر حلقات من جدائل أشعة الشمس تميل نحو الغروب، ومع بداية إرخاء الليل سدوله فوق المدينة، عبّرت لجمال عن رغبتي في التجول في صنعاء القديمة، وفي الحال خرجنا معًا من الفندق، وأخذت أُقلّبُ بصري بين الشوارع حتى وصلنا إلى مطعم «الفاخر»، وهو من المطاعم المشهورة المختصة بالوجبات اليمنية القديمة والحديثة، ويقع في منطقة حدّة القريبة من الفندق.

تناولنا فيه أكلتين من الأكل اليمني القديم، سلتة باللحم المفروم، وفحسة باللحم المضروب. أعلمني جمال بأنه يتم طبخ الأكلتين في قدر حجري يسمى المدرة، ويقدم المطعم مع كل أكلة نوعين من المشهيات، سحاوق أحمر أو أخضر، وصالونة خضار.

بعد ذلك طاف بنا الحديث في مجالات كثيرة عن صنعاء القديمة. قال صديقي بذهن متوقد بأنها من أقدم المدن المأهولة في العالم، تتميز بنمط عمراني يعتمد على بناء الأبراج العمودية التي تتألف من خمسة طوابق على الأقل، وتتجه إلى أعلى لتراقص أردان الغيوم في أعالي السماء، ويعتبرها خبراء الهندسة المعمارية إحدى المآثر الأثرية الفريدة في جنوب الجزيرة العربية.

و بينما كنت أسأله عن تلك الأبراج، أجابني:

«سوف نشاهدها غدًا عن قُرب، علينا الآن الذهاب إلى الفندق للنوم لأن الوقت يقترب من منتصف الليل».

عدنا أدراجنا إلى الفندق. لاحظت وجود دلالات كثيرة تؤشر على عبق المكان ساعدتني على النوم والغوص في بحور من الأحلام في فراشي، وتأثرت أيّما تأثر من مشاهد تخيلتها، وجدت نفسي فيها أمتطي حصانًا أصيلًا، وعلى مقربة مني سيف بن ذي يزن يمتطي حصانه الأبيض، نظرت في عينيه في تلك اللحظة ورأيت دنياه غير الدنيا التي أعيشها في الزمن المعاصر، ثم أفقت من نومي في وقت انبلاج الصباح وانتشار الضوء في كلّ مكان.

رنَّ جرس هاتف الفندق، كان جمالٌ على الطرف الآخر، اتفقت معه على اللقاء في مطعم الفندق لتناول وجبة الإفطار.

التقينا في الوقت المحدّد، وانتهينا من تناول وجبة الإفطار ثم خرجنا من الفندق للتعرف على صنعاء القديمة في النهار، توالت أمام عيني مشاهد مرئية قديمة لمآثر تراثية بكل ما فيها من عبق التاريخ اليمني القديم، شعرتُ أنها صورٌ مؤطرة مثبتة بعناية على مدرجات عالية في أرض صنعاء القديمة، تنبض بالحياة صالحة لكل زمان، لا تؤثر عليها التحولات والمؤثرات العصرية.

توقفنا عند الجامع الكبير، وهو أقدم جامع بُنِي في اليمن، تجولنا في ساحته وتحدث عنه جمال مطولًا كأنه من بُناته، ثم اتجهنا نحو أبوابه القديمة، وعرفني على نقوش بخط المسند محفورة عليها، وبين لي أنها أبواب قصر غُمدان القديم الذي اندثر ولم يبق منه سوى تلك الأبواب، وقد تمّ استخدامها أبوابًا للمسجد، بعدئذٍ، دخلنا في بعض المنازل الطابقية النادرة التي تُسمى الأبراج، وهي مبنية بالطين والحجارة والحصى، وتتميز بنقوش زخرفية قديمة في داخلها وعلى جدرانها الخارجية، تشبه زخرفتها زخرفة المجوهرات والمنسوجات، وتستخدم فيها أشكال النجوم والثعابين والعناصر الطبيعية، وكانت تنقش أبوابها الخشبية، وتطلى أبوابها المعدنية بألوان زاهية.

بعدئذٍ توجهنا نحو سور صنعاء المنيع بأبوابه الأربعة، وقد بناه الملك السبئي «شعرم» من الحجر وكتل الطين والحصى في بداية القرن الثالث

الميلادي. أثار انتباهي باب اليمن وعمره ألف عام، وفي نظرة عن بعد جذب انتباهي وجود حصن تاريخي ضخم يتربع عاليًا فوق قمة جبل «نقم»، ومدرجات على أرض المرتفعات العالية تتماوج فوقها الأشجار اليانعة، ثم بعد ذلك نبّهني جمال لوجود حارات كثيرة في صنعاء القديمة، ودعاني للتجول فيها مشيًا على الأقدام، تجولنا وتوقفنا بعض الوقت في حارتي الأبهر والجوافة، ولاحظت وجود البساتين على اتساع كل الحارات، دخلنا عدة بساتين مزروعة بأشهى أنواع الفواكه والخضار.

في اليوم التالي عرَّفني مضيفي على برج القباطي الأعلى في اليمن، ويقع في شارع نواكشوط ويبلغ ارتفاعه 72 مترًا وعدد طوابقه 20 طابقًا، درت حوله مرات عدَّة ووجدته من الزمن الحديث.

بعدها زرنا عددًا من الحمامات العامة القديمة التي عرفها اليمنيون قبل آلاف السنين في وقت لم تعرف فيه أوروبا متعة الاغتسال بالماء، ولم تُعر اهتمامًا لفروض الطهارة.

واصلنا التجوال في صنعاء القديمة، وتلاحقت أمام عينيّ الآثار المادية من الماضي القديم. في الوقت نفسه كان يرنّ في أذُنيّ صوت جمال وهو يُحدثني عن مفاصلَ كثيرةٍ تتصل بالحضارة اليمنية، تفاجأت عندما وصف لي بنايات اليمن القديمة بأنها خضراء صديقة للبيئة راعت الاعتبارات البيئية في كلّ مرحلة من مراحل البناء، بخاصة التصميم لرفع مستوى جودة الهواء والإضاءة وجعل المباني أمكنة أفضل للحياة.

أصغيت له باهتمام كبير، وفي سياق حديثه سألته:

«هل يَعني ما تقوله أنّ اليمن القديم قد اهتم بالمحافظة على البيئة قبل آلاف السنين من معرفة الهندسة العمرانية المعاصرة هذا الجانب المهم لحياة البشر؟».

أجابني:

«نعم، وهذا ليس رأيي الشخصي، بل رأي المصادر البيئية العالمية التي أعدت دراسات كثيرة يضيء بعضها بعضًا، وتعطي اليمن قصب السبق في هذا الجانب الحيوي، وقد استمدت معلوماتها من المباني اليمنية القديمة التي ما زالت ماثلة للعيان في صنعاء وفي كلّ مدن اليمن القديمة الموجودة على امتداد الأراضي اليمنية في الزمن المعاصر».

لاحظت بالعين المجردة صحة ما يقوله جمال، وقد نظرت إليه مشدوهًا، وتساءلت ثانية:

«كيف تمّ لهم ذلك؟».

فأجابني:

«قدماؤنا كانوا يتمتعون بقدرة فائقة على اكتشاف الحلول الناجعة في صراعهم مع الطبيعة، توافرت لهم كلُّ الإمكانات اللازمة لتحسين ظروف الحياة».

أحسست بانتعاش كبير لحديثه، وشعرت أنّ كلماته تضرب بأجنحتها في كلّ المدن اليمنية، وهنا تساءلت:

«هل كلّ المباني اليمنية في المدن والصحراء صديقة للبيئة؟».

فأجابني:

«أجل، لقد بنى أجدادنا البيوت والقصور والمعابد مطلة على فضاءات واسعة خضراء، تتخللها أشجار البساتين الممتدة على مدى البصر، مما ساعد على دمج البيئة العمرانية مع الطبيعة الخضراء، وقد سبقت مدينة صنعاء القديمة كل المدن في العالم في إيجاد الحلول الناجعة لتحسين نوعية البيئة».

(9)

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر عندما أخذنا حقائبنا من الفندق، واتجهنا بسيارة رفيق رحلتي نحو عرش مأرب، في مدينة مأرب، حيث توجد بقايا السدّ التاريخي القديم، لازمني كثير من الفرح لأنني سأرى بعد قليل بقايا العرش العظيم، سمعت صوتًا يقول لي، أجل ستراه بعد قليل.

كان ذاك صوت رفيق رحلتي جمال، وأسرعت قائلًا:

«تمنيت طيلة عمري أن أرى آثاره الباقية، للاستمتاع بها وتخيل ما جرى من أحداث تحت قبة عرش مأرب في ذاك الزمان البعيد».

رمقني جمال طويلًا ولم يقل شيئًا، ثم أخذ يحدثني عن المناطق التي كنا نمرّ في أراضيها، سمعت منه حكايا كثيرة تعجّ بالحروب، ويلمع ترابها بالدماء التي لم تختف منذ آلاف السنين، ما زالت دماء الأموات بحسب وصفه تجري هنا وهناك وتسري في تلافيف جذور الأشجار.

ضحك جمال عندما قال هذه العبارة، وأرخى جذعه على مقود السيارة وأخذ يغني أغنية حضرمية لإرضائي، ثم همس قائلًا:

«تفيدني اللغة العربية كثيرًا في حديثي، باعتمادي الزائد على استخدام المجاز اللغوي، أي التجاوز والتعدي وصرف اللفظ عن معناه الظاهر وتضخيم لفظه البلاغي».

بعد هذه الكلمات التي لم أسمعها من أحدٍ من قبل، أوقف جمال سيارته وترجلنا منها للتمتع بمنظر بانورامي رائع، ثم استدرك وتحدث ثانية عن البلاغة الكلامية بوضوح أكثر، وقال بصوت هادئ:

«يعتبر بعض أصدقائي أنني أكذب عليهم في أحاديثي التاريخية».

علقت على جملته الأخيرة:

«حاشاك من الكذب أنت حكائي رائع، وعلى مقدرة عالية في سرد التاريخ القديم، وها أنا أسجل على أوراقي كل المعلومات التي أسمعها منك، كما سجلت من قبل كلّ ما سمعته منك بالكويت».

بعدها صعدنا السيارة من جديد، عدنا إلى الشارع العام ثانية وقاد رفيق رحلتي سيارته باتجاه مدينة مأرب، بعد ثلاث ساعات وصلنا إليها في موقعها المعروف في الجهة الغربية من صحراء الربع الخالي، وهو الموقع الأثري الأشهر في اليمن، يوجد فيه عرش بلقيس الذي عاشت فيه الملكة الشهيرة في زمن مضى قبل بدء التقويم الميلادي، واعتبر من أعجب العجائب وقت تشييده، ويتكون من قصر ومن معبد بران السبئي الذي أقيم من أجل إله الشمس.

وقفت مع جمال عند باحة عرش بلقيس، وانبرى بالحديث عند عمدانه عن عشرات الأساطير الغريبة التي ظهرت عن العرش، محشوة بتفاصيل خيالية غير قابلة للتصديق، لهذا لم أشجعه على متابعة الحديث عنها.

بعدها استدار جمال واشار بسبابته إلى موقع أثري قريب يعرف باسم محرم بلقيس أو معبد أوام، وهو معبد سبئي أقيم من أجل إله القمر «المقة».

ظهرت علائم الرضا على محيّا جمال لوصولنا مأرب قبل الوقت المحدّد دونما تأخير، وسرعان ما أخذنا بالتجول في مأرب للتعرف على آثارها التي كانت مدفونة تحت كثبان الرمال حتى نهاية عقد السبعينيات من القرن الماضي، وبعد اكتشافها أصبحت من أهم المعالم التراثية في اليمن الحديث، يزورها السياح من كلّ بقاع الأرض.

كنت متلهفًا للتعرف على مآثر عرش مأرب العمرانية، وتبدَّى لي أنه يتألف من وحدات معمارية قديمة متناسقة، تعرفت منها على قاعة العرش ودرج القصر العالي ومدخله الرئيسي، كما تعرفت على فنائه الأمامي وسوره الكبير المبني من الطوب.

لفتت نظري تكوينات عرش مأرب المرمرية والمهيَّأة لزيارة السياح، ووجدت متعة بحديث رفيق رحلتي عن مكامن جمالها، وعلى وقع حديثه دمجت خيالي بمشاهد من الماضي، رأيت بلقيس وجهًا لوجه، وعلى مقربة منها عدة راقصات يتمايلن في ساحة واسعة، وأثار دهشتي إتقانهن الغناء أيضًا، هكذا تمكنت بمنظور خيالي من أن ألهو مع الملكة العظيمة فترة من الوقت، وفي لحظة أعادني رفيق رحلتي إلى الواقع من جديد عندما سألني بصوته الجهوري:

«هل أنت معي أم مع الملكة بلقيس؟».

أجبته:

«كنت معها في تلافيف خيالي، والآن أعود إليك ثانية، إلى الواقع من جديد».

واصل جمال بلورة لمحات واضحة عن جمال الطبيعة المجاورة لعرش بلقيس، تحدث عنها بأحاسيس مرهفة، وسألته عن ومضات من المعاني الخفية لبعض أجزاء المعبد / العرش.

استمر بصري بالتنقل بين الأشجار المزروعة على اتساع المكان، منها أشجار لم أعرفها من قبل، وقدَّم لي جمال عرضًا موسعًا عنها، اختلط حديثه بدلالات عن شجر اللباب، وفوجئت بأنها من الأشجار الصغيرة التي تكسو أغصانها صفوف من الزهور الصغيرة ذات اللون الأبيض، وأنها تنتج سائلًا لبنيًّا يُستخدَم في صنع البخور والعطور وبعض الأدوية، وقد لعبت تلك الأشجار دورًا كبيرًا في تطوير تجارة طريق البخور البرية لأنها تنتج أجود أنواع البخور، وبيّن لي أيضًا أنه يكثر انتشار شجرة اللباب في جنوب الجزيرة العربية، خاصة في حضرموت التي هي على مقربة من مأرب، وفي منطقه المهرة التي سنزورها بعد أيام.

وبينما كانت الأفكار تدور في رأسي سريعة عن تاريخ بلقيس، طلب مني جمال أن نتجه نحو بقايا السدّ القديم في صحراء مأرب، وفور التعرف عليها، عدنا لرؤية السدّ الجديد الذي تم تشييده قبل بضع سنوات، ثم بعد فترة طويلة من التجوال، وقفنا عند بقايا السد القديم ثانية.

وما هي إلا دقائق حتى جلس جمال بجانبي على الأرض، وقال بصوت حزين:

«عندما انهار السدّ توقفت القوافل التجارية وانتهى الرخاء، ثم عمت المجاعة وأُطفئت أنوار الحياة الحضارية، من ثم فتحت أبواب الهجرة البعيدة أمام القبائل اليمنية، وبشكل خاص أمام القبائل الحِمْيَرية، هاجروا بموجات متلاحقة لم يخفت أثرها على مدى سنوات طويلة».

سرعان ما تذكرت محاضرة الباحث الجزائري عثمان السعدي، وتخيلت أجداده وهم يحملون ما خفّ من أمتعتهم البسيطة في بدء هجرتهم إلى المجهول، شعرت بالتحمس لهم، ظانًّا بأنَّ أحد أجدادي معهم.

أومأت برأسي منتشيًا بما قلته، ثم استطردت بالحديث قائلًا بخط تصاعدي واضح:

«هاجروا من الجوع الذي يُمرّغ الإنسان بالمهانة والحرمان، لكنهم الآن لهم حضورهم الملموس على كلّ الأصعدة، في دول كثيرة استقروا فيها، عربية وغير عربية».

لفت نظري جمال لوجود نقوش أثرية كثيرة في مدينة مأرب محفورة بخط المسند، على حجارة في فناء عرش مأرب، وعلى صخور ضخمة تعلو سفوح الهضاب والجبال، ويتجلّى بجانب خط المسند المسجل عليها، معناها باللغة العربية الفصحى، وقد رأيت بأمّ عيني مجموعة من النقوش المتوفرة على مقربة من عرش مأرب، تشير إلى وجود معابد

وقصور أخرى اندثرت عبر السنين ورأيت من بقاياها عقودًا وأعمدة وجدرانًا تذكر بمملكة سبأ القديمة وبقصر سبئي قديم في مأرب اسمه قصر سلحين، كما تعرفت على بقايا سدّ جفينة في صحراء مأرب أيضًا.

وبينما كنّا ننظر إلى النقوش القديمة بغمرة عاطفة واضحة تنبثق من أعماق السنين، أشار لي جمال بيده نحو نقوش محفورة بحرف المسند، على صخرة ضخمة تقع بجانب ممرّ محفور في جبلٍ عالٍ، طلب مني التوجه نحوها، وبعد خطوات معدودة وصلنا إليها ووقفنا أمامها، ثم قال جمال بحماس زائد:

«هذه النقوش تشير إلى القوافل اليمنية التجارية البرية التي كانت تجوب مناطق الجزيرة العربية، ومناطق عرب الشمال في بلاد الشام والعراق، وتشير أيضًا إلى المراكز الأمنية الخاصة بحماية القوافل على امتداد طريق البخور».

لاحقًا نظر رفيق رحلتي إلى ساعة يده، وسرعان ما اقترح عليّ مغادرة مدينة مأرب والاتجاه نحو وادي وصحراء حضرموت، وفي سياق حديثنا سألته مستوضحًا:

«هل محافظة حضرموت هي الأقرب لمحافظة مأرب؟».

أجابني:

«نعم وفيها مآثر تاريخية مهمة، سوف نتجول في مدن حضرمية فيها ما يثبت صحة هذا الأمر، ستفتح لنا أبوابها على ماضي اليمن القديم ومنابع حضارته الإنسانية».

صعدت إلى سيارته وجلست بجانبه، ثم أدار محركها وبدأ المسير على شارع واسع يمتد ما بين المحافظات، استرخيت في مقعدي واختلط حديثه بأغنية حضرمية لأبي بكر سالم عن «بنات المُكلا». شعرت وأنا أسمعها بسعادة لا توصف، كان يمط كلمات أغنيته بلهجته الحضرمية، ويؤكد فيها أنّ دورة الأيام لم تُنسِه «بنات المُكلا»، ظلّ وفيًّا لهن ويعيش على ذكراهن، ويتذكر دومًا جوانب مهمة عن مدينة المُكلا الأثيرة على قلبه.

حانت مني نظرة سريعة إلى جمال وقلت له:

«مغنينا من رواد الغناء العربي الجميل».

ردَّ قائلًا:

«حدثتك عنه بالكويت عندما سمعنا تسجيلاته في بيتك، وأضيف إلى ما قلته من قبل، أنه عاشق يعبّر بجرأة عن عشقه لبنات المُكلا. وقد مُنح بهذه الأغنية جائزة أفضل صوت في الوطن العربي».

هززت رأسي موافقًا على كلامه في مديح مغنينا الكبير، ثم أخذنا نغني معًا أغنية يا بنات المكلا، في وقت كانت فيها أفكاري تدور حول مدن اليمن المعاصرة، وفي لحظة وجهت سؤالًا إلى رفيق رحلتي:

«هل سنزور المُكلا على ساحل بحر العرب؟».

فأجابني:

«لن نزورها لأنها بعيدة، وليست ثرية بتراث اليمن القديم، موقعها يجذب السياح لأنه يجمع ما بين شاطئها على البحر، وسلسلة جبال

دائرية تلفّها من الجهتين الشمالية والجنوبية، وأهم ما فيها حصن الغويزي الذي يُعَد تحفة فنية معمارية تجمع ما بين فنّ العمارة العربية والهندية، ويقع على سفح جبل من الجهة الشمالية من المدينة».

على الفور سألته ثانية:

«هل بإمكاننا زيارة ظفار، عاصمة المملكة الحِمْيَرية، وممالك يمنية أخرى في الزمن القديم؟».

أجابني:

«لن نزورها أيضًا، لأنها قرية شبه مهجورة في محافظة إب، ليست ثرية بالتراث اليمني القديم، أهم ما فيها معبد قصر ريدان، الذي تم تشييده قبل ألفي سنة».

صمت جمال بعض الوقت، ثم انبرى لمواصلة الكلام موضحًا:

«إن أهم ما يوجد في المعبد القديم بعض الرسوم المنحوتة على جدرانه لأشكال نباتية وحيوانية ولنبات العنب وثماره وأوراقه، وللغزلان والفهود والثيران والوعول الضخمة بقرونها الطويلة».

وما كدت أسمع كلامه حتى سألته:

«هل ترمز الحيوانات إلى الأديان الوثنية».

أجابني:

«إنها مجرد رسوم للزينة لا أكثر».

سكتنا لحظة، ثم تحدث ثانية وسرعان ما بيَّن سير رحلتنا في وادي وصحراء حضرموت، واستدرك قائلًا:

«سوف ترى في مدن حضرمية أمثلة من عجائب اليمن القديم».

أومأت برأسي إيجابًا، وشكرته على وقته الثمين الذي خصصه لي، رغم مشاغله الكثيرة في دائرة الآثار اليمنية، وانشغاله الدائم بكتابة الأبحاث في مجال التراث اليمني القديم.

شعرت بمظاهر انفعالات كثيرة توالت الواحدة تلو الأخرى على وجهه لما سمعه مني، بلع ريقه وقال بصوت عاطفي:

«لقد وعدتك أثناء لقائنا بالكويت أن أعرّفك على بلدي وأصدقائي، ولم تؤثر زيارتك على مشاغلي الوظيفية لأنني أستمتع بإجازة طويلة من العمل مدتها شهر كامل».

انتبهت إلى عينيه وهو يحدق بإمعان في إشارات المرور المثبتة على طرفي الطريق السريع، وبعد انقضاء فترة قصيرة من الوقت، سمعته يردّد بصوت عالٍ:

«إننا على مقربة من موقع أثري تاريخي مهم، له صفحات في تاريخ صناهجة حِمْيَر حضرموت».

(10)

تابعنا طريقنا في وادي حضرموت، خيّم الصمت علينا وتوالت الانفعالات واستمتعت بجمال الطبيعة، أسرفت في النظر لمنحدرات الوادي المكسوة بالأعشاب ومختلف أنواع النباتات وأشجار اللبان، وفي لحظة انتزعني رفيق رحلتي من خواطري عندما أخبرني بأننا وصلنا أخيرًا قرية تاربة، فأوقف سيارته وركنها في موقع عام ثم ترجلنا منها.

بينما كنت أجول بنظري في جنبات القرية، رأيت عن بعد في جهتها الجنوبية الشرقية، موقعا أثريا يختال مفتخرًا بآثاره القديمة، أشار جمال بإصبعه نحو الموقع، وأخبرني بأنه يُعرَف باسم قارة الصناهجة أو حصن بني صنهاجة. وبيَّن لي أن لفظ «قارة» يعني باللغة العربية «الأكمة» أو الجبل الصغير، ويُنسب الموقع إلى قبيلة من قبائل الصناهجة عاشوا في المكان نفسه، واستمروا فيه حتى هاجروا من اليمن في زمن الهجرات البعيدة.

اتجهنا نحو موقع قارة الصناهجة، وتجولنا بين بقايا الآثار المنثورة فيه، ثم جلسنا في ركن قريب منها، أفسحت في مُخيلتي مجالًا لتخيل الناس الذين عاشوا هنا قبل ألف عام، تخيلت وجوههم وسيوفهم وأحصنتهم وبيوتهم التي كانت تُؤويهم.

لاحظنا وجود شخص يجلس على كرسي قرب الآثار تحت مظلة كبيرة مكتوب عليها بخط عريض «مشاوي قارة الصناهجة»، نظرت نحوه

ثانية فوجدت أمامه «طبلية» عليها أدوات شواء اللحوم والدجاج على طريقة بلاد الشام، ويقف بجانبه مجموعة من السياح ينتظرون دورهم للحصول على شطائر من خبز ملوح المسطح المنفوخ بشرائح اللحم والدجاج المشوية، اتجهنا نحوه، ووقفنا في الدور لشراء وجبة من مشاوي «قارة الصناهجة»، علمنا من البائع أنه لبناني ولوالده مطعم كبير في مدينة سيئون القريبة يقدم فيه مأكولات بلاد الشام المشهورة.

سرعان ما عدنا ثانية إلى الركن الذي جلسنا فيه من قبل، وشرعنا بتناول وجبة الشواء الصنهاجيّة، وبينما نحن نتناولها بشهية، أعربت لجمال عن إعجابي بما أرى من آثار تتراكم بكل ما فيها من تراكيب مادية، ونقوش مزينة بمعانٍ واضحة عن تاريخهم المميز، ودور الصناهجة الكبير في أيام المملكة الحِمْيَرية، خاصة في زمن احتلال الحبشة لليمن، فقد أثبتوا أنهم من القادة الكبار الذين تنحني لهم الجباه، وحققوا قصب السبق في رفع أعلام النصر في الحملات العسكرية التي كانوا يقودونها ويتربصون في معاركها بأعدائهم.

اتسع حديث رفيق رحلتي عن الصناهجة بصوت أكثر وضوحًا، وسارعت على سبيل التندّر إلى وصف رائحة الشواء التي تفوح على اتساع المكان بأنه في مقدور الجائع أن يشبع من رائحتها لحدتها، وفي لحظةٍ تفرس جمال في وجهي ثم قال وهو يضحك بأعلى صوته:

«لقد دفعنا ثمن المشاوي فقط ولن ندفع ثمن رائحة الشواء».

وبينما كنّا نتندر على رائحة الشواء، طلبت من جمال أن نجد فندقًا في قرية ترابة لنقضي فيه ليلتنا، كي نكون على مقربة من آثار أجداد الصناهجة القدماء.

رفع رأسه قائلا:

«ترابة قرية لا توجد فيها فنادق مريحة للنوم حتى لو لليلة واحدة، وأقترح أن نتوجه إلى سيئون المدينة الكبيرة التي تبعد عنا بالسيارة نحو رُبع ساعة فقط، وفيها فنادق كثيرة من كلّ الدرجات».

استدرت لكي أراه جيدًا بعد أن غابت الشمس وحلَّ الظلام، وما كدت أجمع شتاتي حتى انصب حديثي على تبرير بقائنا في ترابة والنوم فيها، حتى لو افترشنا الأرض، وبعد نقاش طويل وافق رفيق رحلتي على طلبي بناء على إلحاحي، واتجهنا إلى القرية، ووجدنا في بدايتها بيتًا يتكون من صالة وغرفتين يملكه عجوز يؤجره للسياح.

جلسنا في حديقة البيت، فأسعدتني رائحة الزهور الطيبة ثم نظرتُ إلى السماء، فوجدت القمر يحبو في رحب واسع فسيح، ويسري نوره في عيون السهارى في الليل الطويل، وفي لحظة استولى علي تأثر شديد وقلتُ مبتسمًا:

«كان أجداد الصناهجة يفترشون الأرض، ويتلفعون بالسماء، في ليالي الصيف القائظة».

وفي لحظة ازداد تأثري، وقلتُ لجمال:

«كانت حياتهم بدائية، ويغمرون اليمن بفيض حضارة لم يعرفها العالم في ذلك الزمان».

كان يسمعني بإعجاب، ثم قال:

«ستسنح لك الفرصة للتعرف على تلك الحضارة عندما نبدأ تجوالنا في الغد بزيارة بعض المدن اليمنية القديمة، مدينة تلو أخرى».

وبينما كان القمر يشق طريقه نحو منتصف السماء، دخل جمال إلى غرفته كي ينام، ثم لحقت به ودخلت غرفتي، ولم أتمكن من النوم لأنّ نور القمر كان يدخلُ عبر نافذتي، ولم أكن نشطًا صافي العينين، وبحاجة إلى النوم فأغلقت نافذتي، وعمت العتمة غرفتي ونمت بعد دقائق معدودة.

شعرت بضعف لم أحسّ به من قبل لأنني كنت متعبًا، لكن الأحلام أعادت إليَّ حيويتي، تلفعتُ بها وأرجعتني مئات السنين إلى الوراء، ووجدت نفسي بين صناهجة المملكة الحِمْيَرية، وبينما كنت منهمكًا بالنظر في كل الجهات اهتزّ سريري عندما رأيت في حلمي أحد قادتهم الكبار مع حاشيته، حدثني عن الحروب التي خاضها في زمانه، وكيف كانت الخيول تخطو مسرعة تهب كالعاصفة، والدماء تغطي تراب وادي حضرموت، بعدها فقدته، جرى مسرعًا في ممر طويل.

راقني كلامه، واشتدّت وتائر الحلم في منامي، لم أستخف بما قاله، صدقته ووجدتني أرفرف كطير يلهو مع نسيم تاربة العليل، وهكذا بقيت غارقًا في بحور أحلامي. وبعد أن انقضى الليل أفقت عند انبلاج الصباح

وجلست في الحديقة، ثم لحق بي جمال، وتبعنا بعد ذلك بقليل صاحب البيت وهو يحمل إبريقًا من بن الكبوس، ارتشفنا عدة فناجين، وسرعان ما أحضر لنا إفطارًا يتكون من البيض واللحم المفروم، ومعه قطعتان كبيرتان من خبز ملوح الشهي.

وبينما كنا نتناول وجبة الإفطار، حدثت رفيق رحلتي عن حلمي في ليلة الأمس، لم أطل الحديث، لكنني استشعرت من تعليقاته أنه يهوى الأحلام لأنها تمدّه براحة داخلية عن الأمور التي تستهويه، وتشغله في أوقاته العادية عندما تتقاطع أفكاره مع مسارات الحياة.

لاحقًا، أخذنا حقائبنا، ووضعناها في السيارة، واتجهنا إلى صاحب البيت في غمرة عاطفة واضحة، ثم شكرناه على ضيافته، وقدمنا له ضعف ما طلبه لمبيتنا وإفطارنا، قلتُ له إنه يعتني بزبائنه بأسلوب أفضل من أساليب الفنادق ذات الأسماء الرنانة، وبررت له ذلك بقولي:

«لأن طبائعك المتميزة تستمدها من أجدادك الصناهجة».

ابتسم بفرح ظاهر، وأومأ برأسه موافقًا على كلامي.

ودّعناه، وقاد جميل سيارته مارًّا بين آثار قارة الصناهجة، وشعرت أنني تركت فيها جزءًا مني سأعود إليه في يوم قادم.

انتبه إليّ جمال وأنا أحدق بإمعان في آثار الصناهجة المتناثرة حولنا، وانتزعني من خواطري، قائلًا:

«سترى مثلها آثارًا أخرى كثيرة في مدن أخرى، لأن اليمن مخزنٌ ضخمٌ للآثار القديمة».

هـززت رأسـي، وقلـت وأنـا أجـول بنظـري في آخـر مشـهد مـن آثـار الصناهجة:

«لكن هذه الآثار تسترعي انتباهي، وأشعر أن قارة الصناهجة جزءٌ من قريتي».

سرعان ما قال جمال:

«كلّ بلاد العرب أوطاننا».

رمقته بطرف عيني مبتسمًا، وعبرتُ له عن موافقتي على قوله.

(11)

وصلنا إلى مدينة سيئون مبكرًا في يوم ربيعي جميل، أنبأني رفيق رحلتي بأنها المركز الأهم في وادي وصحراء حضرموت، وبيّن لي بنفسية متفتحة أنَّ مضيفنا في تلك المدينة أحد أعز أصدقائه، وهو من نسَّابة اليمن المعروفين، وسرعان ما قلت له إنه يهمني أن يُعرّفني على قبائل الصناهجة ومراحل هجرتهم من اليمن في الزمن القديم.

احببت كثيرا هذا الجانب من رحلتنا، وعبرت عن رغبتي في الغوص في تلافيف تاريخ حضرموت، أريد أن أنتزع منه كل ما يثيرني. وفي لحظة سرحتُ بخيالي بحماسة ظاهرة، سمعت جمال يحدثني بكلمات بالغة الرقّة عن موقع حضرموت المهم على مقربة من بحر العرب، وتشعب في حديثه بكلمات مختلطة ردّد فيها أسماء وأحداثًا كثيرة من الزمن القديم سُجلت بخط المسند على نقوش كثيرة في مدينة سيئون التي نحن فيها الآن.

كنت سعيدًا بتأمل سيئون ونحن نطوي شوارعها في سيارة جمال، لم أتمالك نفسي وأنا ألامس بعيني جمال طبيعة أرضها التي تحيط بها سلاسل جبلية من الجهتين الشمالية والجنوبية، وتتخللها أودية فرعية لوادي حضرموت، تصبّ المياه التي تجري فيها في الوادي الكبير.

اجتزنا عدة أحياء رئيسية من أحياء المدينة، وطاف بنا الحديث في مجالات قديمة وعصرية كثيرة عن سيئون، سجَّلتها على أوراقي عندما ركن رفيق رحلتي سيارته على طرف وادٍ صغير يتجه نزولًا إلى أسفل،

مارًّا بهضبة عالية تظهر كبوابة للوادي الكبير.

أنعشني حديث جمال وهو يردّد حكايا كثيرة ممهورة بحبّ اليمن القديم، وبعد فترة قصيرة طلب مني أن يعرّفني على مركز المدينة وشوارعها الداخلية وحاراتها التي تلفها من كل الجهات، وسرعان ما بدأنا التجول في السيارة في وقت أخذ فيه رفيق رحلتي يرشدني إلى أهم معالم مباني سيئون الطينية التي تميزها عن كثير من مدن اليمن في الزمن الحالي، وبينما كان يردّد على مسمعي معلومات كثيرة لم أسمع عنها من قبل، قال لي مبتسمًا:

«سنتجه الآن إلى الجهة الشمالية من المدينة، للقاء مضيفنا صديقي «ثاقب» الذي ينتظرنا في منزله الآن».

بعدها أخفض من سرعة سيارته، واجتاحني شعور بالراحة عندما وجدته يبتعد عن الشوارع المكتظة بالسيارات في مركز المدينة، ثم سرعان ما اتجهنا صعودًا نحو الجهة الشمالية من المدينة، وبعد فترة قصيرة اقتربنا من منطقة مأهولة بالسكان، وما هي إلا لحظات معدودة حتى توقفت السيارة أمام بوابة بيت طيني كبير يتألف من ستة طوابق، فأعلمني رفيق رحلتي أنه بيت صديقه ثاقب. في الحال ترجلنا ووجدنا مضيفنا أمامنا، تعانق مع صديقه بعد طول غياب، وعلمت من جمال أنَّ الطابق الأول من بيت صديقه يخص الضيوف، ونحن من ضيوفه، يستقبلنا بمشاعر حضرمية فياضة، ووعدني بشيء من الجدية حال لقائي به بأنّه على استعداد ليحدثني عن خبايا اليمن وحضرموت بكلمات غنية بالمعلومات.

جلسنا ثلاثتنا في صالة الجلوس، وبعد هنيهة رفع ثاقب رأسه، ونظر في ساعة يده، ثم قال مبتسمًا:

«الآن سيصل ثلاثة أصدقاء دعوتهم لتناول الغداء معنا».

بعدها خرج من مكانه وهبَّ لاستقبال ضيوفه، بعد وقت قصير عاد معهم وقدمنا إلى بعضنا البعض، فاجأنا مضيفنا بالحديث عن المأكولات اليمنية المعروفة في المناطق الساحلية، وأخبرنا بأنّه سيقدم لنا وجبة غداء تتألّف من أم الربيان، وسمك الهامور والصفادم والعقمان، ومعها سلطة خاصة تقدم دومًا مع وجبات الأسماك.

بيّنت لمضيفنا بأنني تعودت على أكل سمك الهامور والنقرور والزبيدي المعروفة كثيرًا بالكويت التي أعمل وأعيش فيها منذ عدة سنوات، ويمتد سوق السمك فيها على مقربة من شاطئ الخليج العربي، وتُقَدَّم فيه الأسماك طازجة للمشترين بعد تفريغها من شباك الصيادين، ويتمّ عرضها على قواعد إسمنتية مرتفعة في قاعة كبيرة تعلو فيها أصوات الباعة وهم يروجون لأسماكهم المعروضة للبيع.

هزّ ثاقب رأسه وقال:

«حظي اليمن عبر تاريخه الطويل بثروة سمكية تتلاطم أسماكها المتنوعة مع أمواج سواحلها الطويلة التي تحمل حتى الآن بصمات شباك الصيد، منذ أيام ممالك سبأ وحِمْيَر وحضرموت».

رمقني بطرف عينه وقال متابعًا حديثه عن السمك:

«المُكلا عاصمة حضرموت بعيدة عنّا، تحتاج إلى تخصيص وقت

طويل لزيارتها، ونحن نجاهر دومًا لضيوفنا بأنها من المواقع المهمة للأسماك، وتعتبر ملتقى دائمًا للصيادين».

عقبت على هذه المعلومة فقلت:

وماذا عن جنوب اليمن؟

تتابعت تعليقات الحضور بالقول إنَّ عدن على جانب كبير من الأهمية في الثروة السمكية، وتعتبر مركز جذب للصيادين، وتشتهر كثيرا بالربيان وأم الربيان، وأضفت قائلًا:

«هذا ما شاهدته عندما زرت عدن قبل عدة سنوات، وهذا ما استشعرته أيضًا عندما تعرفت على أرخبيل سقطرى اليمني خلال زيارتي عدن، واستمتعت بأجواء جزر الأرخبيل الست، وتذوقت أشهى الأسماك التي تشتهر بها تلك الجزر في موقعها على المحيط الهندي».

علّق أحد الحضور موجهًا حديثه إليّ:

«لا تنسَ جمال الطبيعة في تلك الجزر إنها قطعة من الجنة».

بعد فترة من الوقت طلب منا مضيفنا الانتقال إلى صالة الطعام المجاورة لصالة الجلوس، لتناول وجبة الغداء مع أصدقائه الذين اتضح لي من أحاديثهم أنّهم من المثقفين، وهكذا وجدت نفسي محاطًا بهم في أجواء فريدة يظللها حسن ضيافة وكرم يمني قلّ مثيله.

وبينما كنا نأكل السمك المعدّ في التنور على الطريقة الحضرمية، تحدث الجميع عن عرب اليمن وممالكهم الشهيرة ومنها مملكة حضرموت، وقدموا نبذة عن تاريخ القبائل الحضرمية، ودورها الحضاري

في أيام المملكة الحِمْيَرية.

لاحظت من أحاديث مضيفنا ثاقب أنه من النسابين المعروفين في اليمن، الذين يعتمدون على معلومات نقوش خط المسند القديمة أو الخط الحِمْيَري، وما يقابلها من حروف اللغة العربية الفصحى.

وبعد انتهائنا من تناول وجبة الغداء الشهية، وبينما كنّا نرتشف بن المخا اليمني، وجهت حديثي إلى ثاقب، وسألته بحماسٍ زائد:

«هل يمكنك تعريفي على خط المسند؟».

تهلّل وجهه ورمقني بطرف عينيه قائلًا:

«هو نظام كتابة قديم تطور في جنوب الجزيرة العربية الذي يشمل اليمن وشمال القرن الإفريقي، قرابة القرن التاسع والعاشر قبل الميلاد، وهو يتطابق في أصواته وعدد حروفه مع اللغة العربية الفصحى، ويزيد عليها بحرف واحد فقط».

تطلع من خلف نظارته الطبية، وقال بافتخار:

«أنا من المختصين المعروفين بخط المسند، وأتأكّد من صحة معلوماتي التاريخية القديمة عن اليمن، مما أجده منقوشًا بالخط نفسه على الآثار القديمة، ثم أقارنه بما هو مسجل في أمهات الكتب القديمة كمقدمة ابن خلدون وتاريخ ابن الكلبي وابن الأثير والطبري وغيرهم، ثم أعطي الغلبة بعد ذلك لما تذكره النقوش لأنها تتميز بكونها أكثر قربًا من الحقيقة».

عبرتُ عن إعجابي بما سمعته من ثاقب وسألته عن جوانب كثيرة تتعلق بممالك اليمن، فأجاب عنها ثم سجلتها على أوراقي، وبعدها

اعتدلت في جلستي واستدركت متسائلًا:

«ماذا يقول النسابون العرب عن قبائل الصناهجة في حضرموت؟».

أجابني قائلًا:

«إنهم من قبائل حِمْيَر من العرب العاربة، بنَوْا حجرًا فوق حجر في النهضة اليمنية الحضارية، لهم أطلال في الزمن الحالي في وادي حضرموت نشمّ منها رائحة الحياة اليمنية الأولى».

علّق جمال:

«نمنا ليلة الأمس في بيت على مقربة من تلك الأطلال».

عقبت بنبرة جادة عن أصلهم الحِمْيَري، وتساءَلت:

«هل ثمّة نقوش تؤكّد جذورهم العربية؟».

أجاب ثاقب بإصرار واضح:

«نعم، ثمّة كمٌّ كبير من النقوش الأثرية بخط المسند تتسع دلالاتها وتظهر باللغة العربية الفصحى، وتؤكد أنّ الصناهجة من خيرة قبائل العرب التي هاجرت بعد انهيار سدّ مأرب».

ثم أضاف:

«لتفادي الجوع سرعان ما هاجروا واستقروا في دول كثيرة عربية وغير عربية، وظهر منهم ملوك وأمراء وسلاطين، وللأسف اعتبر بعض المدعين أنهم من الأمازيغ، وأن الأمازيغ ليسوا عربًا، وهذا ادّعاء لا تقر صحته نقوش خط المسند والآثار المكتشفة ولا جمهرة النسابين العرب».

وبينما كانت الأفكار تدور في رأس ثاقب أكّد كلّ الحضور على مصداقية ما يقوله عن الجذور العربية للصناهجة، وبينوا أن لهم مآثرهم في اليمن القديم، بخاصة في زمن الدولة الحِمْيَرية، وأنّهم يجمعهم بماضيهم العربي خيط أثيري لم ينقطع عبر آلاف السنين.

التقط ثاقب طرف الحديث ثانية، ووسع مدار الحديث عن الصناهجة، وقال على مسمع من الجميع بأنه هو وأصدقاؤه الثلاثة ينتسبون إلى صناهجة حِمْيَر حضرموت.

مضى الوقت بطيئًا وثاقب يراكم تفاصيل من إنجازات حقّقها الصناهجة في دول مهجرهم البعيد، وتحدث عن أسماء مشهورة في تاريخهم، وسرعان ما بيَّن في حديثه أن «الكاهنة» زعيمة قبيلة «جراوة» كانت من الصناهجة في المغرب الأوسط، الاسم الذي كان يطلق على الجزائر في ذاك الزمان.

ثم استطرد مبينًا أنَّ لقبائل الصناهجة دورها الكبير في تاريخ دولة بني حماد في الجزائر، التي أسسها حماد بن بكلين الصنهاجيّ وسقطت تلك الدولة على يد الموحدين.

سكت مضيفنا ثاقب لحظة، ثم بادرني قائلًا:

«قبائل الصناهجة من حِمْيَر حضرموت، وهم كثر حتى إنَّ بعض المؤرخين يسمونهم «شعب الصناهجة». لكنهم في بعض الدول التي هاجروا إليها يطلق عليهم اسم القبائل الحِمْيَرية، وأنا أسميهم في بحوثي «صناهجة حِمْيَر حضرموت».

(12)

توقف مضيفنا عن الحديث، ثم وقف في وسط صالة الجلوس في وقت الأصيل، وأعلن عن بدء جلسة تخزين القات، وبينما كان يردّد على مسمعنا كلمات منتقاة عن جودة القات الذي لديه، أدخل أحد أولاده كميات كبيرة من عشبة القات الخضراء، ووعاء كبيرًا مملوءًا بشوربة المرق التي يتناولونها مع التخزين.

وبينما كان الجميع يقترب أكثر فأكثر مع بدء التخزين، التفت إليّ مضيفنا سائلًا:

«هل خزنت مثلنا من قبل؟».

فأجبته:

«لم أخزن القات في فمي ولم أمضغه طيلة حياتي، مع علمي بأنّ عشبته لا تحتوي على مادة مخدرة من الناحية العلمية، وأنها تحتوي فقط على مادة منبهة، والقات غير معروف في بلادي».

بيّن الحضور أن التخزين جلسة شعبية تمارسها أغلبية شعب اليمن، يشعر فيها المخزن بالنشوة وبطاقة هائلة للتركيز، ويستمر مفعول القات خلال فترة التخزين مهما طالت، ثم يعم الهدوء وسرعان ما تخور قوى المستهلكين.

بدأ التخزين وانتفخت الأفواه وأخذ الجميع بمضغ عشبة القات، وبعد لحظات اتسعت مدارات الحديث، وارتفعت أصوات الغناء، واسترعت

انتباهي أغانٍ حضرمية، اختلطت فيها الكلمات الجميلة مع الموسيقى، واستمتعت بسماع أغاني أبي بكر سالم.

أبرقت عينا ثاقب فجأة وغنى بنبرة عاطفية أغنية «أحبك طوخ» للمغني أحمد ستار، اهتزَّ مع كلماتها، ودار حول نفسه وهو يرقص رقصة المولوية الصوفية التي ابتدعها جلال الدين الرومي في زمانه، لاحقًا غنى موشحًا للشاعر الأندلسي لسان الدين بن الخطيب، وغنى رفاقه أغاني كثيرة رافقهم أحدهم بالعزف على أوتار عود عليه صورة بلقيس، وبالتالي ختم ثاقب الغناء بترديد قصيدة صوفية شهيرة للشاعر الفارسي حافظ الشيرازي المعروفة بمطلعها الجميل: «ألا يا أيها الساقي أدر كأسًا وناولها».

انتهت جلسة التخزين في ساعة متأخرة من الليل، في وقت خارت فيه قوى الحضور، وتكلّف ثاقب بتوصيلهم إلى منازلهم، قام بالمهمة أولاده الثلاثة، وكنت أنا الوحيد بينهم الذي لم تخر قواه لأنني لم أخزن، وأويت إلى فراشي بسهولة وأنا على أهبة الاستعداد للغوص في بحور أحلام تعيدني إلى أيام حِمْيَر.

في صبيحة اليوم التالي اعتدلت في جلستي على السرير وفتحت عينيَّ، ثم اتجهت إلى صالة الجلوس وانتظرت جمال الذي يشاطرني النوم في جناح خاص بالضيوف، انتظرته مطولًا ثم أفاق متأخرًا مع مضيفنا ثاقب، أطلّوا عليَّ في ساعة متأخرة من صباح ذلك اليوم، وهتفت بأعلى صوتي مرحبًا بهم، تقدموا نحوي بخطوات شبه مستقرة.

بدأنا صباحنا بارتشاف فناجين من بن الكبوس اليمني الذي يساعد شاربه على استقبال الحياة بنشوة، وبقدرة فائقة لممارسة عمله على أفضل ما يكون.

كان ابن ثاقب الأكبر يجهز صالة الطعام لتناول الإفطار، دعانا بعد فترة ووجدنا أمامنا عدة أطباق من عجّة لبّ الكوسا ومكدوس لبّ الباذنجان واللبن الرايب والحليب وإبريقا مملوءا بشراب الليمون.

قلتُ ونحن نتناول طعام الإفطار:

«في عشبة القات عفريت لا بدّ من القضاء عليه لأنه يلعب في رؤوس من يستهلكون القات».

فأجابني ثاقب وهو يضحك بنوبة قهقهة عالية:

«الإنسان هو العفريت، كلنا عفاريت نصور الدنيا كما تحلو لنا، نأخذ منها ما يضرّنا أكثر مما ينفعنا».

بعدها سمعت ثاقب يضيف إلى ما قاله:

«أنا وأصدقائي نخزن القات في جلسة واحدة في كلّ شهر، لكننا نكثر من جلسات غناء القصائد الصوفية والموشحات الأندلسية».

شدّني حديثه وهو يردّد حيثيات علاقة الشاعر حافظ الشيرازي والشاعر الألماني الأشهر جوته، وبينما كنت أتابع حديثه، توقف وسألني:

«من يعجبك من شعراء الأندلس ومن الشعراء المعاصرين في اليمن؟».

فأجبته:

«أبـو البقـاء الرُّنـدي في الأنـدلس، وعبـدالله الـبردوني الشـاعر اليمنـي الضرير الذي أبصر بعيونه كلّ شعراء العرب».

أدركت من تعليق ثاقب أنّه من عشاق الشاعر الراحل عبدالله البردوني، وجمعتـه معـه صـداقة طويلـة، وكـان الشـاعر الكبيـر يقـدر أبحاثـه حـول الحضـارة اليمنيـة وأصـول قبائـل اليـمن المنتشـرة في مهاجرهـا البعيـدة في أمكنة كثيرة، وفي لحظة سالت دمعة على خدّه وهو يتذكر صداقته مع الشاعر الكبير.

وهنـا طلبـت منـه أن يُكمـل مـا بـدأه مـن سـرد بـالأمس حـول رحلـة الصناهجة من حضرموت إلى خارج اليمن، حتى أتابع معه الدول التي وصلوا إليها في دول المغرب العربي الكبير والأندلس وأصبحت فيها قبائلهم مرهوبة الجانب، ولها دورها في حكم تلك الدول.

أسعفه الوقت لتحقيق ما أريد، لكنه سألني مستوضحًا:

«لماذا تهتم بهم أكثر من قبائل حِمْيَرية أخرى لها حضورها في الزمن الحاضر».

«لأن البعض يعتبرونهم من الأمازيغ الذين ثبتوا أقدامها في شمال إفريقيا والأندلس».

قطب ثاقب حاجبيه وقال بانفعال واضح: «إنّهم من العرب العاربة من قبائل حِمْيَر حضرموت، وأجدادهم من بُناة النهضة الحضارية اليمنية، آثارهم ونقوشهم بخط المسند رأيتَها أنت بعينيك بالأمس عندما نمتَ على مقربة من أطلالهم في قرية تُرابة».

وضع يده اليمنى على جبهته وحركها في عدة اتجاهات، وظهر كمن ينبش في ذاكرته عن رحلة قبائل الصناهجة من اليمن إلى دول المهجر، وقد تركوا خلفهم في دروب رحلتهم الكثير من الشواهد الأثرية، خاصة النقوش التي حفروها بخط المسند.

أومأت برأسي بما يعني الإعجاب بحديثه، بعدها وجه كلامه لي ثانية ذاكرًا بعض الروايات الشعبية التي تتحدث عن مشاهد عاطفية، يعبر فيها أبناء قبائل الصناهجة الحِمْيَرية عن حزنهم وقت الرحيل من اليمن، وتعبر حتى عن حزن أحصنتهم التي كانت تجرّ قوائمها وهي تعبر باب المندب متوجهة إلى القرن الإفريقي.

سألته:

«هل كتب عنهم ابن خلدون بتوسع في مقدمته؟»، فأجابني:

«كتب عنهم وأرجع نسبهم إلى ولد صنهاج من العرب العاربة، وأنهم ساهموا في دول مهجرهم بنشر كتابات خط المسند الحِمْيَري، التي ظهرت في العصور الغابرة».

وأضاف قائلًا:

«ثمة دراسات كثيرة بحسب علمي ظهرت في الزمن المعاصر، وأجمعت على وجود صلات جينية ولغوية وعرقية بين قبائل صنهاج الحِمْيَرية العربية وسكان شمال وغرب وشرق إفريقيا، وإن كثيرًا من المؤرخين الأفارقة يؤكدون على ذلك، وامتدح هذه الدراسات بعض

بحاثة البربر الذين دافعوا عن جذورهم اليمنية العربية التي قاوموا فيها التعصب، ووضعوا تاريخهم في مجرى إنساني عميق».

ومن محاسن الصدف أنّه كال المديح للكاتب الجزائري عثمان السعدي الذي حضرت محاضرته بالكويت، وبين أنه يدافع دومًا عن عروبة الأمازيغ (البربر) رغم أنه ينتمي إلى قبيلة مهمة منهم، وأفكاره هذه تجعل حياته أكثر سهولة لأنه يُعبر بها بشيء من الغليان عن انتمائه إلى جذوره الحقيقية، وهذا يبعث في نفسه السرور والرضا.

تنقلت ببصري بين جمال وثاقب وبيّنت لهما أنَّ المقاييس الأثرية المادية هي التي هدته للتعرف على جذوره العربية الحقيقية، وابتعد عن أشباح الحكايا الخرافية.

ظهرت علائم الرضا على مُحيا ثاقب، وقال:

«هذا أفضل ردّ على أتباع الأكاديمية الأمازيغية- البربرية في باريس، التي أسّسها الفرنسيون بعد استقلال الجزائر لزرع الفتنة بين أبناء الشعب الواحد، ولمنع تأسيس دولة عربية في منطقة المغرب الكبير، فيغمر نورها الدول العربية كلَّها عند بزوغ الفجر في كلّ يوم جديد».

(13)

كان يوم تعرفي على واثق بمثابة عيدٍ أضيفه إلى قائمة الأعياد التي أحتفل بها كلّ عام، لأنه أمدني بأحمالٍ مثقلة بالمعرفة عن اليمن وصناهجة حِمْيَر حضرموت.

وبينما كنت أنبه نفسي أفضاله، تطلع إليّ ثاقب قائلًا:

يكفيك ما سمعته عن الصناهجة بين جدران منزلي، والآن لا بدّ لي أن أعرفك على مدينتي سيئون التي قضيت عمري كلّه فيها أقتات على تاريخها الطويل.

بعد بضع دقائق خرجنا ثلاثتنا من منزله، وسرعان ما جلسنا في سيارته وتجاوزنا عدة شوارع متقاطعة في المدينة، ثم توقفنا أمام قصر الكثيري الشهير، وهو أهم قصر من الطين ماثل للعيان في عالم اليوم، شيّده أجداده قبل خمسة قرون في مركز المدينة، كقصر الحكم لسلاطين الدولة الكثيرية التي حكمت وادي حضرموت لفترة خلت من تاريخ اليمن القديم.

أسعدتني رؤية القصر وهو بكامل أجزائه، وفيه مئات الغرف التي يتكوّن منها في طوابقه العديدة التي تمتدّ إلى أعلى فوق قمة ربوة عالية تناطح الفضاء وتطل على وادي حضرموت.

تجولنا في القصر الذي فُتحت أبوابه للسياح منذ فترة من الوقت، ويعتبر في الزمن الحالي من أهم معالم حضرموت التراثية، أول وأكبر قصر طيني في العالم تمّ تشييده قبل خمسة قرون.

أثارني بما سمعته عن سير السلاطين الذين عاشوا فيه طيلة فترة طويلة من الزمن، عندما كانت سيئون عاصمتهم، وأحد أهم مراكز التجارة العالمية، تمر فيها القوافل بكل ما تحمله من منتجات حضرمية ذائعة الصيت في ذاك الزمان البعيد.

حرصنا أيضًا على التجول في مركز المدينة، وأسعدتني رؤية معالم عمرانية أثرية قديمة أخرى من الحصون المشيدة بالطين على قمم الهضاب، وجدتها مرايا تعكس خفايا حياة سلاطين الدولة الكثيرية، استمتعت بالنظر إليها ولم يكن في مقدوري مغادرتها، وتمنَّيت أن تبقى تلك الحصون الكثيرية ماثلةً في عينيَّ لفترة أطول.

بعدها وقفت سيارة ثاقب أمام مقهى يعلو بجانب حصن على مقربة من مركز المدينة، جلسنا في زاوية تطلّ على قصر الكثيري، وتناولنا شاي الكبوس اليمني الممزوج بالحليب الطازج، وسرعان ما تحدّث مضيّفنا عن ماضي حضرموت، أضفى على حديثه لمسات من روايات تناقلتها القبائل الحضرمية التي رحلت من حضرموت في دفعات متلاحقة، حاملة معها لغتها وعاداتها وتقاليدها وأنظمة طعامها.

أثار دهشتي وهو يتحدّث بتفصيلات موسعة أكد فيها على ما حقّقه الحِمْيَريّون الحضارمة من إنجازات كثيرة جعلتهم من سادة الدول التي هاجروا إليها، وازداد حبوره وهو يتحدث عن أمثلة كثيرة عن مجدهم، وفي لحظة رفع عقيرته، وتابع قائلًا:

«عندما نزور تريم ستجد أمثلتي مسجلة في مخطوطات مكتبة الأحقاف، بطريقة تنم عن خبرة ومهارة في التوثيق».

لازمت سماعه طيلة الوقت، وفي لحظة فاجأني وهو يتحدث عن قبائل تعتزُّ في الزمن الحالي بجذورها الحِمْيَرية الحضرمية، كقبيلة «الحباب» في شرق السودان وأرتيريا التي هاجر أتباعها القدماء من اليمن بعد انهيار سد مأرب، وما زال نسلها يتحدث اللغة الحِمْيَرية في الزمن الحاضر، تحدث عنهم كأنه يعرفهم فردًا فردًا، وأكد أنهم حافظوا على جذورهم الحِمْيَرية، ولم يخلطوها بادعاءات بعض الأمازيغ الذين يشرعون أبوابهم على أصول غير عربية.

طال الحديث في هذا المجال، وعلق جمال قائلًا:

«هناك قبائل كثيرة في دول القرن الإفريقي وفي إفريقيا وآسيا تفتخر بأصولها الحِمْيَرية الحضرمية، وتحافظ على عادات وتقاليد أجدادها، وتعود أفرادها على زيارة اليمن بين الحين والحين، يقضون في حضرموت أيامًا يخلطون فيها جذورهم القديمة بحاضرهم».

وقبل أن نغادر المكان، سألتهما:

«هل يوجد في الوقت الحاضر من اليمنيين، من يعيشون حياة أجدادهم الحِمْيَريين القدماء، ويتحدثون بلغتهم القديمة».

أجابا بصوت واحد:

«أجل يوجد مثل هؤلاء الناس».

ثم أثار انتباهي ثاقب بقوله إنّ هناك قبيلة في جنوب اليمن، تعيش في قرية «تُلُب» الواقعة في منطقة يافع، يتمتع أتباعها بحياة أجدادهم القدماء، يتحدثون لغتهم ويلبسون لباسهم التقليدي، ويظهرون كأنهم لا يلبسون الثياب، ولا يوجد في قريتهم كهرباء ومدارس ولا أطباء، يعيشون على العسل والنباتات، ويسهل التعرف عليهم من مقالات الصحف العالمية عنهم، بوصفهم ظاهرة غريبة في اليمن المعاصر.

اتسع مدى الحديث عن أتباع تلك القبيلة الغريبة، ومضى الوقت بطيئًا وأنا أتخيلهم أمامي في تلك الأثناء، كأنهم يخرجون من خبايا العصور الغابرة، ويعيشون أيامهم بتشكيلات متشابكة مع عادات وتقاليد عصور أجدادهم الماضية. إنّ ما أكتبه عنهم، ليست قصة منسوجة من التخيلات التي تستهويني بين الحين والحين، بل هي أجزاء من قصة حقيقية، تظهر كأنها من الخيال، وأعترف أنني سحرتُ بتلك القصة، وملأت نفسي رغبة في أن أزور تلك القبيلة الحِمْيَرية في قادم الأيام.

تابعت مع صديقيّ التعرف على خبايا الحياة الحِمْيَرية في الزمن الحالي، وعبَّرت عن دهشتي لغرابتها وندرتها، لكنني في الوقت نفسه شعرت في قرارة نفسي أن الأصول الحِمْيَرية غير قابلة للزوال، ستبقى من أصول العرب العاربة على مدى الأيام، وقد أثارني ثاقب عندما قال في هذا الشأن:

«كلّنا نحمل خصائلَ منهم، محفورة في أعماقنا، حتى الصناهجة أينما كانوا، يحسون في نفوسهم بخصائل منهم».

انتهينا من شرب شاي الكبوس اليمني، ثم اقترح علينا ثاقب التوجه إلى منزل صديقه شهاب الذي تمتد أصول أسرته إلى أصول سلاطين الدولة الكثيرية، ثم قال مبتسمًا:

«إنه مضيفنا اليوم، دعانا لتناول وجبة الغداء في بيته».

خرجنا من المقهى، واندفعنا نجري على أقدامنا إلى شارع قريب، ثم إلى الذي يليه، وتوقفنا عند سيارة ثاقب.

جلس فيها في مقعد القيادة وجلسنا معه، اتجه نحو الجهة الجنوبية من المدينة، ثم أبطأ بعض الشيء وتوقف أمام مبنى يتألف من ستة طوابق يتميز بنقوش ملونة على جدرانه الخارجية، مع سلسلة ممتدة من العمدان الملونة الصاعدة إلى أعلى، كما أثار انتباهي وجود عقود مُلونة على أطراف طوابق المبنى الستة، تميزه عن غيره من المباني المجاورة.

توقفنا بعض الوقت أمام المبنى، وسرعان ما أطلّ صاحبه شهاب الذي تعرفت عليه بالأمس في بيت ثاقب.

تصافحنا ورحب بنا في بيته، ولامست في كلامي دفقات من المديح لبيته الجميل.

علّق على سبيل التندّر:

«إنّه من الطين وبيوتكم في بلدك من الحجر الأبيض المدقوق».

ضحكنا ثم دخلنا الطابق الأول في المبنى حيث توجد صالة كبيرة لجلوس الضيوف، وبجانبها صالة أخرى كبيرة للطعام.

دخلنا صالة الجلوس، وشاهدت على جدرانها لوحات تشكيلية من رسم ابنة شهاب موقعة باسمها «رودينا»، وعلى صفحة جدار آخر توجد صورة كبيرة معلقة لسلطان من سلاطين الدولة الكثيرية، خطوطها متماوجة ممزوجة بألوان طبيعية، تظهر السلطان كأنه من الأحياء مع حاشيته في قصره الكبير. وقفت واتجهت نحو اللوحة وقرأت اسم السلطان المحفور على قطعة نحاسية مثبتة في أسفل اللوحة، واسمه جعفر بن بدر الكثيري مؤسس الدولة الكثيرية، التي انضمت في منتصف الخمسينيات إلى اتحاد الجنوب العربي الذي أسسته سيئة الذكر بريطانيا صاحبة البصمات السوداء في كل دول الشرق العربي بما فيها فلسطين التي شردوا أهلها في كل دروب الشتات، وهاهم باقون على عهد العودة إلى وطنهم مهما طال الزمان.

قيَّمتُ ما أرى من لوحات رودينا الظاهرة أمامي، وبيّنتُ مكامن حذقها بالرسم، ولم تعُد الدنيا تسع شهاب من الفرح، وبيّن لي أنَّ ابنته ليست في سيئون وأنها في مأرب ترسم لوحات تستوحيها من عرش مأرب، وتريد أن ترسم لوحة للملكة بلقيس من وحي الأساطير الخرافية التي ابتدعت قبل بدء تدوين التاريخ.

وصل أربعة من الضيوف، وقد تعرفت على اثنين منهم بالأمس في جلسة القات، وجدتهما منشرحين لرؤيتي وهم في وضع أفضل مما كانوا عليه في جلسة التخزين، يواصلون دورة الحياة العادية من جديد، واستعادت أفواههم شكلها الطبيعي بدون انتفاخ.

(13)

واصلنا الجلوس في صالة الجلوس، ودار الحديث عن اليمن بتفرعات كثيرة، ولم تبتعد عيناياَ عن النظر إلى لوحات بنت شهاب، وقلتُ على مسمع من الجميع:

«فنُّ رودينا بذرة، ترقبوا أنْ تثمر فنًّا واقعيًّا مهمًّا عندما تنضج الريشة بين يديها، وسوف تجري الألوان أمامها كمجرى النهر السريع».

علّق جمال قائلًا:

«ضيفنا ليس رسامًا، لكنه من هواة جمع المقتنيات الفنيّة، ولديه منها متحفٌ في بيته، رأيته عندما زرته بالكويت، وكتب ابني صارم عن مقتنياته مقالة صحفية طويلة، عنوانها مقامات فنيّة تراثية».

نظر إليّ شهاب بفتحة حدقتي عينيه الواسعتين، وسألني على عجلة من أمره:

«هل تعرفت على كلّ ما تريده في حضرموت؟».

لم ينتظر مني جوابًا، ثم ارتفعت موجات صوته، وأخذ يؤكد لي أن كل المؤشرات المعتمدة في الزمن الحالي تُظهر أنَّ حضرموت هي أكبر المحافظات في اليمن الحديث، فيها كمٌّ كبير من الآثار والنقوش التي يهتم بها البحاثة والزوار، وبدأ ظهورها في حضرموت لأول مرة في النقوش السبئية، ثم ظهر اسمها بوصفها بلدًا باسم حضرموت في التاريخ على النقوش نفسها، ومن حسن حظّنا أنّ حضرموت قد ذكرت في تاريخ

الرومان واليونان ومصر الفرعونية، وفي تاريخ كلّ العهود البائدة التي ظهرت علامات علاقتها مع قوافل حضرموت التجارية البرية والبحرية.

تدخل أحد الحاضرين قائلًا:

«تاريخ حضرموت الذي نعتز به هو تاريخ المملكة الحِمْيَرية الذي حمله معهم الصناهجة وكلّ القبائل الحِمْيَرية، عندما هاجرت وألقت نظرة وداع أخيرة على وادي وصحراء حضرموت».

وجهت نظري نحو شهاب وسألته:

«متى ظهرت سلالة أجدادك آل كثير في حضرموت؟».

فأجابني:

«في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، واحتاجوا إلى فترة من الوقت حتى قضوا على حكم قبائل كثيرة ثم أسسوا دولتهم الكثيرية ولقبوا أنفسهم بالسلاطين».

بعدئذٍ توقف شهاب عن الحديث، ثم وقف وهو يشير بيديه إلى صالة الطعام ويدعونا إلى تناول وجبة الغداء، وفي الحال دخلنا الصالة وجلسنا حول طاولة دائرية، ثُبت عليها سدرٌ واسع تتكدس عليه مكونات المنسف الأردني، ويعلو فوقها رأس كبش كبير، وبينما كان ريقي يسيل شوقًا لهذه الوجبة الشهيرة، سألت شهاب:

«من علم زوجتك تحضير المنسف؟».

فأجابني بافتخار:

«علمتها أمّها، وهي عمّمت تحضير المنسف بين نساء أهلي وأصدقائنا في سيئون، كما عمّمت المقلوبة والمسخن والملوخية وتحضير الكنافة النابلسية».

ثم أضاف:

«زوجتي أردنية، جذور أسرتها من حِمْيَر حضرموت».

سألته:

«من أي مدينة أردنية؟».

فردّ بافتخار واضح:

«إنّها من السلط، مدينة الأردن الحِمْيَرية».

ثم أضاف:

«عُدت إلى أهلي الحِمْيَريين الذين هاجر أجدادهم إلى بلاد الشام، وتشرفت بمصاهرة أسرة كريمة منهم».

توقف عن الحديث والتفت إلينا ثم دعانا إلى تناول الطعام.

شمر الجميع عن أياديهم، وأخذوا يزدردون لقيمات المنسف بحسب الأصول التقليدية، بينما كان مضيفنا يفتت لحم الضأن أمام ضيوفه، كما اعتاد أنْ يفعل معه أصهاره في السلط عندما يزورهم، ويغمرونه بالفرح في زياراته المتلاحقة.

بعدئذٍ انتهينا من تناول وجبة الغداء واتجهنا إلى صالة الجلوس، وبعدها دخلت سيدة البيت، حيتنا وقدمت نفسها باسم ابتسام، ثم

وضعت أمامنا عدة صحون من الكنافة النابلسية، وعندما تذوقتها وجدتني أشعر بنشوة وأقول لزوجة شهاب:

«كنافتك أفضل من كنافة أول كنافجي نابلسي أسس له محلًا بالسلط».

سُرَّت أيما سرور، ثم قالت:

«كما أنها أفضل من كنافة كلّ محلات الكنافة في عمان».

كان الأمر يبدو لها مسلمًا به إلى حَدّ أنّها لم تتنازل قيد شعرة عن اعتزازها بجودة الكنافة التي تعدها في سيئون.

بعدها خرجت من صالة الجلوس، وعلى محياها ابتسامة تقدير للضيوف، ثم التقط مضيفنا شهاب طرف الحديث ثانية وأخذ يتحدث عن شارع طريق السلط الدائري أو شارع الستين، الذي تكثر فيه المطاعم والمقاهي، ويطل على كل المدينة، وعلى ضواحيها المرتفعة من كلّ الجهات، كما يطلّ على الأرض المحتلة، وبخاصة على جبال القدس وجبال الخليل وأريحا والبحر الميت.

وأضاف أنه يُكثر السهر في مقاهي هذا الشارع عندما يزور السلط ولا يعرف الإغفاء في أحضان إطلالته الساحرة، ويحاول المحافظة على وزنه باختصار تناول كميات كبيرة من المشاوي التي يكثر تناولها في أماسي الصيف الساحرة.

ضحك الجميع بصوتٍ عالٍ وضحك معنا لأن وزنه يقترب من الوزن الخفيف، ولن يؤثر عليه ما يتناوله من طعام زائد.

عبرتُ له عن إعجابي بشارع الستين، وأنني أزوره كلما أزور أهلي وأصدقائي في عمان، وقد اجتاحتني رغبة لزيارته في الصيف الماضي، واستولت علي سعادة لا حد لها، عندما التقيت مع عدد من الأصدقاء في مطعم طلة القدس، الواقع على طرف الشارع.

على أساس ما قلناه أنا وشهاب عن شارع الستين، تمنى الجميع أن يتعرفوا عليه، وتمنيتُ أن ألتقي معهم على نواصيه في قادم الأيام، أثناء زياراتي السنوية التي أزور فيها عمّان.

وبمقتضى حديثي، علق الجميع بحسب مزاجهم على مواضيع كثيرة مزجوا فيها الأكل مع عزف الربابة في الصحراء، وترديد الأغاني الصوفية والموشحات التي يعشقها ثاقب ويتقن أداءَها، وفي لحظة أغمض عينيه، وسدّ بيده أذنه اليمنى، ورفع صوته وغنى الموشح الشهير «لما بدا يَتَثّنى» الذي هو واحد من أروع الموشحات الأندلسية.

(14)

بعد سماع الموشح الأندلسي انتهت جلستنا وقررنا الخروج من منزل شهاب، وبينما كنّا نقف قرب باب منزله الخارجي، اتفقنا على اللقاء في صباح اليوم التالي لتناول الشاي في المقهى نفسه الذي جلسنا فيه على مقربة من مركز المدينة.

بعد مغادرتنا منزل شهاب بوقت قصير، وصلنا إلى منزل ثاقب مضيفنا في سيئون، وسرعان ما جلست وحدي في مكتبة صاحب المنزل، كي أسجل على أوراقي كمَّ المعلومات الكثيرة التي قطفتها في سيئون، واصلت الجلوس لوحدي فترة طويلة من الوقت، وما إن انتهيت من الكتابة حتى دخلت جناح النوم المخصص للضيوف، ثم أرخيت جفوني وتعالت أنفاسي ممزوجة بسكون النوم.

***

أفقت في صباح اليوم التالي متأخرًا، وكانت سيئون مغمورة بأشعة الشمس في يوم ربيعي يصعب على الشعراء وصفه، لجمال الخضرة التي تغمره ولسحر الطبيعة الخلابة. بعدها خرجت من غرفة نومي ثم وقفت بجانب شرفة ضخمة تحفّها أطراف عقود ملونة، وقد اعترتني في تلك اللحظة رغبة في المشي، وأخذت أذرع المكان جيئة وذهابًا، فجأة التقيت مع جمال ومضيفنا ثاقب، ومن توّنا اتجهنا إلى صالة الطعام، وتناولنا

وجبة الإفطار التي تألفت في معظمها من خبز طاوة المطلي بطبقة كثيفة من عسل السدر اليمني الأصيل.

خاطبني ثاقب، وجدته يحدثني عن عسل اليمن، وعلى ذقنه عدة نقاط منه، بادر بمسحها ببشكير وضع بعناية على مقربة منه، ثم التقت عيناي بعينيه، قال وهو يجيل نظره بصحن العسل الضخم الممدّد أمامنا:

«عسل اليمن من أجود أنواع العسل في العالم، له طغيان كبير على البطون يغويها بتناوله مع طعام الإفطار، علاوة على تناوله في كلّ الأوقات ممزوجًا مع الأعشاب والنباتات البريّة والشاي كعلاج شعبي لتسكين الآلام وتهدئة الأعصاب».

ثم أضاف:

«يُنتج العسل في الصحاري والجبال التي تنمو فيها الأشجار الصحراوية، مثل أشجار السدر التي يُعتبر عسلها الملكي من أجود وأغلى أنواع العسل في العالم».

علق جمال قائلًا:

«من حسن حظنا أنَّ وادي وصحراء حضرموت من أشهر المناطق في إنتاج عسل السدر الملكي منذ آلاف السنين، وقد نسيت حين عبرنا الوادي وصحرائه أن أنبهك إلى آلاف المناحل المنتشرة على مرمى البصر في كل مكان، وتعتني بها نسبة كبيرة من الحضرميين».

فأجبته:

«وأنا نسيت أن أسألك عن المناحل التي مررنا بها، وعن كنوز المعرفة الخاصة بها، لأنّها من مآثر اليمن النادرة التي يصعب وجود ما يشبهها في أي بلد آخر».

أرفق جمال حديثه بحركة مفاجِئة، ومن غير كلمة منه وقف وأدركت أنه يريدنا أن نخرج إلى مركز المدينة. بعد فترة قصيرة التقينا بشهاب في المقهى الذي جلسنا فيه بالأمس، جلسنا على مقاعد تطل على ساحة المركز، وأخذنا بارتشاف شاي الكبوس اليمني المحلى بعسل السدر الحضرمي.

سكتنا لحظة ثم طلب ثاقب من شهاب أنْ يحدثنا بتوسع عن قبائل حِمْيَر التي استقرت في السلط لأنهم أصهاره، فأجاب بنبرة جادة أنَّ السلط كلّها مدينة حِمْيَرية، ثم تحدث بتوسع عن «عشائر الحمامرة» التي ترجع أصولها إلى حِمْيَر حضرموت، وهم الجذور الحقيقية لعشائر السلط التي اشتقت الأسماء التي تحملها من الحِمْيَريين، مثل أسماء أبو حمور والحموري وحيمور. وهناك عشائر خارج السلط لا تدل أسماؤها على أصلها الحِمْيَري، كعائلة أبو حسان، وعشائر بني حسن.

كنت أسجل هذه المعلومات على أوراقي، وطلب مني شهاب أن أضيف إلى ما أكتبه من معلومات وجود عشائر من أصول حِمْيَرية في إربد والكرك في حي المنشية، وأماكن أخرى في الأردن.

تملكتني الدهشة لشرح شهاب الذي لم يكن عاديًّا على الإطلاق، ثم قلتُ بشيء من الدهشة:

«يوجد في مدينة مأدبا عشيرة مسيحية تُسمى بعشيرة حمارنة، يُقر النسابة بأنهم ينتمون إلى حِمْيَر حضرموت، ويجمعهم أصلهم الحميري مع أقرباء لهم من المسلمين من حِمْيَري فلسطين».

وقُلت دون تردّد:

«يوجد في فلسطين عوائل كثيرة حِمْيَرية، ومنها عائلات تُسمى «آل سيف» تيمنًا باسم سيف بن ذي يزن، وعائلة أمي تُسمى بهذا الاسم، وابن عمومتها عبدالرحيم الحاج محمد آل سيف، كان القائد العام للثورة الفلسطينية التي اندلعت في عام 1936».

قُلتُ كل هذا عن حِمْيَري فلسطين بلا مواربة، نطقت على الفور بكل شيءٍ، مشيرًا إلى أنَّ البحث عن الجذور القديمة لا يؤثر سلبًا على قضية بلدي، بل يؤكد انتماء الفلسطيني لهويته العربية، وأن العرب حوله كالدروع في وقت الشدة.

فجأة رفع جمال رأسه، وتساءل بحدة:

«أين هم العرب الآن، وأنتم معرضون للخطر صباح مساء، مطاردون في كلّ مكان، ويحيط بكم العدو الغاشم من كل جانب».

بعدها علقتُ بنبرة جادة:

«يعيش العرب الآن في زمن الانكسارات، إنهم في موقف غريب، لا ألتمس لهم المبرّرات لضعفهم، ولكنني على قناعة بأن يوم صحوتهم قادم لا محالة».

خيم علينا الصمت بعض الوقت، ثم سألني ثاقب:

«لدي معلومات تشير إلى علاقات قديمة بين حضرموت والبتراء، هل تعرف عنها شيئًا».

أومأت برأسي نافيًا أي معرفة لي بتلك العلاقة، وطلبتُ منه أن يعطيني نبذة عنها، وبينما كنت أجول بنظري في جنبات المقهى الذي نجلس فيه، قال ثاقب:

«اكتشفتُ مبكرًا عدم وجود عشائر حِمْيَرية في منطقة البتراء الأردنية، رغم أنها ارتبطت تجاريًّا بالمملكة الحِمْيَرية، إذ كانت قوافل التجارة البرية الحِمْيَرية تمرّ عبر البتراء وهي تتجه في طريقها إلى عرب الشمال، وكانت البتراء محطة مهمة للقوافل، كما تشير نقوش خط المسند، التي تشير أيضًا إلى محطة أخرى في ميناء غزة شديدة الصلة بمحطة البتراء».

بعدها عاد بنا جمال إلى المعالم الأثرية في حضرموت وبين أنه تعرف على آثار بنايات محفورة في الكتل الصخرية على الطريقة النبطية تشبه معالم البتراء الأثرية، وما زالت ماثلة للعيان حتى الآن، وللأسف أمكنتها بعيدة عن مسار برنامجنا الذي اعتمدناه من قبل.

وسرعان ما أضفت:

«ولا تتصل بصناهجة حِمْيَر حضرموت، الذين أهتم بهم بصورة خاصة في زيارتي الحالية لليمن».

بعدئذٍ التفت إلينا شهاب وطلب منّا التحدث عن الحِمْيَريين من جديد، رمقني بطرف عينه وقال:

«استهواني قبل عدة سنوات، البحث عن الحِمْيَريين في فلسطين، توسع بحثي عنهم واكتشفت وجود قبائل حِمْيَرية كثيرة استقرت في عشرات المدن والقرى الفلسطينية، منهم من قدموا مع صلاح الدين الأيوبي، ومنهم من وقف مع ظاهر العمر الزيداني، وحاربوا معه الدولة العثمانية، وكانوا من كبار قادته ومستشاريه».

رفعتُ رأسي وقُلتُ منبهًا أصدقائي إلى أنني علمتُ من قراءاتي عن ماضي غزة أن الإمام الشافعي ولد باليمن، وأنه نشأ في كنف أسرة أقامت في غزة، في حي معروف من الأحياء اليمنية التي ترجع أصول سكانها إلى الحِمْيَريين الذين هاجروا إلى فلسطين في الماضي البعيد واستقروا فيها.

قال شهاب بنبرة فكهة:

«يكفينا الحديث عن أهلنا الحِمْيَريين في الأردن وفلسطين وعلينا التوجه الآن إلى مدينة شبام لتعريف ضيفنا على أهم معالمها العمرانية النادرة».

ثم أضاف موجهًا حديثه لي بأنها قريبة من سيئون، تبعد عنها ما يقرب من اثنين وعشرين كيلومترًا فقط، وفي الحال خرجنا من المقهى، واتجهنا في سيارة ثاقب نحو مدينة شبام.

(15)

وصلنا إلى مدينة شبام، ودهشت كل الدهشة من معالمها العمرانية النادرة، واستمر بصري بالتنقل بين أطرافها، نظرت في كل المدينة ونحن نجتاز بعض شوارعها بالسيارة، واجتاحني إحساس بالراحة لما فيها من مبانٍ طينية عالية، لا مثيل لها في عالم اليوم.

أوقف ثاقب سيارته أمام متحف المدينة، وترجلنا أربعتنا ووجدنا بانتظارنا أحد أصدقائهم من سكان شبام. قدموني له وقدموه باسم هود.

انفعلت عند سماع اسمه وبادرت مستوضحًا:

«هل أنت من بني هود الذين ظهروا كملوك في أيام ملوك الطوائف في الأندلس، وحكموا سرقسطة عاصمة منطقة أرغون قبل ألف عام، ووقفوا مع الصناهجة ضدّ دولة الموحدين؟».

ارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة، ووضع راحة يده اليمنى على قمة رأسه، كأنه كان ينبش عن معلومة مهمة نقشها في يوم مضى في تلافيف ذاكرته، وحظيتُ بمعرفة سرّ اسمه، فقد اختاره والده له لأنه عشق الأندلس طيلة عمره، وكان يقدر «بني هود» ويكتب في بحوثه التاريخية عنهم، ويؤكد أنّ جذورهم تمتد عميقًا في أرض مدينة شبام الحضرمية.

كان محدّثي هود في أحسن أحواله، نظر في عيني، وقال:

«أنا في الخمسين من عمري وأشعر أنني من نسل بني هود، وعندما أزور قصر الجعفرية أفتش دومًا عن مفتاحه، كي أفتحه وأدخله، لأن الذي بناه أحد أجدادي في سرقسطة على مقربة من نهر إيبرو».

ضحكنا عندما ذكر قصر أجداده الذي ما زال قائمًا في إسبانيا حتى الآن ويصرّ على تملكه رغم مرور القرون الطويلة على آخر أيّام حكم أجداده، حاولت في تلك اللحظة أن أتمالك نفسي، وقلت له:

«إنَّ قصر الجعفرية يضاهي بفنّه المعماري المتميز قصر الحمراء في غرناطة، وإن أهم جدّ لك من ملوك بني هود هو المؤتمن بن هود الذي يعترف له علماء الزمن المعاصر، بأنه من أهم علماء زمانه في مجال الرياضيات والفلك»، ولإشباع فضوله بينت له أنه صاحب نظرية في الرياضيات من أشهر النظريات بحسب تقييم علماء اليوم.

بعدها وسعت مدار السرد ولفتُّ نظره إلى أنَّ سرقسطة ازدهرت في أيامه في مجالات العلوم واللغة والشعر والأدب.

وبحركة سريعة أشار بها إلى باب المتحف الذي نقف أمامه، عرفنا أنّه يريد منا التعرف عليه في بداية زيارتنا لمدينته.

دخلنا قاعات المتحف العديدة، ولم يغفل أي جزء منها، تحدث بصوت هادئ عن تاريخ مدينته، وبيَّن أنَّ أول ذكر لها في التاريخ تمَّ في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ودلَّنا على كمٍّ كبير من النقوش بخط المسند، وسارع بترجمة عشرات منها مسجلة بمظاهر واضحة على الحجارة والأعمدة والعقود وبقايا القصور المهدمة، التي لا تتعلق بمدينته

فحسب بل بقبائل حِمْيَر حضرموت، وبينما كان منهمكًا بترجمتها، كنت أتنهد دون أن أتكلم متحسّرًا على حضارة أجداد العرب الذين كانوا سادة الزمن القديم.

حدّق هود في عينيّ وقال بصوت خفيض:

تعتبر مدينة شبام مدينة المدن اليمنية، فهي أكثر مدننا شموخًا، تجاور ناطحات سحابها النجوم. ها هي أمامنا ما زالت ماثلة للعيان حتى الآن، رغم تبدّل الأيام والعصور.

توقف هود عن الحديث ثم اتجهنا إلى خارج المتحف للبدء بمرحلتنا التالية للتعرف على المدينة بالمشي فيها على الأقدام. مشينا وامتدت أمامنا معالمها العمرانية، بتفصيلاتها الفنية التي تشكل موروثًا حضاريًّا لا شبيه له في العالم أجمع.

عرفها هود في بداية المشي بمدلولات صاغها بنسيج حكائي مثير، بين فيه أنها مدينة ناطحات السحاب الشاهقة التي شيدها الحضارمة قبل سبعمائة سنة في الصحراء، باستخدام الطين والماء وسعف النخيل والتبن وكسارة الحجارة، وتعتبر من نوادر المواقع في قائمة التراث العالمي التي ترعاها المنظمات العالمية.

ألقيت نظرة عامة على كلّ أطراف المدينة وأدركت أنني وسط لوحة فنية بألوان زاهية تمتد على اتساع المكان، فيها عشرات ناطحات السحاب التي تقترب من بعضها البعض وتظهر كمظلة تعلو قباب السماء.

تعاقبت ناطحات السحاب الشاهقة أمامنا ونحن نمارس المشي على الأقدام، وفي لحظة طلب منا هود الدخول في إحدى البنايات التي تمتد طويلًا إلى أعلى وتناطح الفضاء في الصحراء، دخلنا وهالني منظر الجدران الداخلية المجللة بالرسوم الملونة التي حافظت على بقاء ألوانها طيلة مئات السنين.

نظر هود إلى ساعة يده وقال بحماسة زائدة:

«حان وقت الغداء، وأدعوكم إلى منزلي القريب من أعلى ناطحة سحاب في المدينة».

سألته باقتضاب:

«هل منزلك جزءٌ من ناطحة السحاب؟».

فأجابني وهو يضحك بصوتٍ عالٍ:

«إنها مجرد جارة منزلي، في مركز الجذب السياحي في المدينة».

بلع ريقه وأسمعنا مقطوعة ضحك بطبقات صوت عالية، ثم وجه حديثه إلي قائلًا:

«لا تنسَ أنَّ القصر الذي يداعب خيالي دومًا وأشعر أنه وشمٌ في عيني، هو قصر الجعفرية الذي بناه أحد أجدادي في سرقسطة».

واصلنا المشي على الأقدام باتجاه منزل هود، وصلناه بعد فترة قصيرة، وأخذت أجول ببصري يمنة ويسرة في محيط أعلى ناطحة سحاب في المدينة. بعدها مضينا قُدمًا ودخلنا منزله ثم جلسنا في صالة الجلوس،

وفي لحظة بدأ سرد معلومات مهمة صاغها في مدارات متشابكة عن أهمية ناطحات سحاب مدينته للحضارة الإنسانية.

وبينما كنّا نسمعه، بإمعانٍ ردّد بأعلى صوته: «حانت ساعة الأكل»، ثم دعانا إلى تناول الغداء في صالة الطعام، وكان نصيبنا من الأكل عدة أطباقٍ مرصوصة بإتقان على طاولة دائرية فيها أكلة المندي باللحم المطورة خصيصًا لأهل حضرموت، بالإضافة إلى ثلاثة أصنافٍ من المأكولات اليمنية، هي: مضغوط دجاج، ومضغوط لحم وزربيان لحم، وحولها ما يكفي من صحون المشهيات الصغيرة، تتضمن سحاوق حمراء وخضراء وصالونة خضار وحلبة، وسلطات تشتهر بها شبام.

لازمت أحاديثهم عن قضايا محلية، لم أُدخل نفسي طرفًا فيها، واختصرت وجودي على تناول الطعام لا أكثر، وبعد أن انتهيت من تناول وجبتي على أكمل وجه، بقيت هنيهة بلا حراك من ثقل الأكل الذي حشوته في بطني، ثم اجتزت مرحلة السكون وقلت لهود:

«أجد في أكل الأندلس لمسات من أكلكم».

فأجابني:

«لاحظت ذلك في زياراتي المتلاحقة لإسبانيا».

ضحك من كل قلبه، وأرجع رأسه في ما بعد إلى الخلف وثبته في أعلى المقعد، وقال:

«أستشعر عندما هاجر أجدادنا أبناء حِمْيَر حضرموت بأنهم حملوا معهم أكلهم ولغتهم ولباسهم وبلاغتهم وحبّ الشعر والأمثال والخطابة».

انفرجت شفتاي بابتسامة، وقلتُ:

«أنت على صواب في ما توصلت إليه لأنني أعرف أستاذًا من إسبانيا يعمل في جامعة إشبيلية في الزمن الحالي، اسمه «إيميليو غونثاليث فيرين» ألَّف كتابًا بعنوان «عندما كنّا عربًا»، في سياق منظومة معرفية تفيض بتراكمات تاريخية يتجلى فيها أثر العرب على الإسبان في زمن وجودهم في الأندلس، إذ لبس الإسبان ملابسهم، وكتبوا اللغة القشتالية بحروفهم العربية، وأكلوا أكلهم وتشبثوا بعاداتهم وتقاليدهم».

أصغى باهتمام لما قلته، وأعرب عن إعجابه الشديد بأفكاره، وسرعان ما سألني:

«هل تُرجم الكتاب إلى اللغة العربية».

فأجبته بهزّ رأسي نافيًا، ولم يعلق لكن ثاقب عقب بنبرة جادة قائلًا:

«نحن لا نعرف تقدير أصدقائنا الذين يمجّدون العرب، إنّ ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية على جانب كبير من الأهمية، أهم من ترجمة مذكرات الكاتبة الفرنسية سيمون دي بوفوار التي تفوح منها رائحة العشق لشخصين معًا على الطريقة الوجودية في نفس الوقت».

مع انتهاء تعقيب ثاقب خرجنا من منزل هود، ولاحقًا مضينا مشيًا على الأقدام إلى المقهى الذي كنا فيه من قبل، جلسنا في الزاوية التي جلسنا

فيها في الصباح في وقت كانت فيه أشعة الشمس تهرول عجلى للاختفاء في أعماق الغروب، وبينما كنا نرتشف كؤوس شاي الكبوس المُحلى بعسل السدر اليمني، فاضت المدينة بأنوار الكهرباء في كل الجهات، وحولت نظري إلى ناطحات السحاب فوجدت أنوارها خلابة، تضاهي لألأة النجوم في السماء، وبدوت متأثرًا بهذا المنظر الجميل وغرقت في لجة من التأملات.

خيم السكون بعض الوقت ثم خرجنا من المقهى، وانطلقنا إلى سيئون القريبة منا عندما داهمنا النعاس، وحينما وصلنا إليها اتجه شهاب إلى منزله، ونمت أنا وجمال في منزل مضيفنا ثاقب.

(16)

أفقنا في صباح اليوم التالي، وتناولنا إفطارًا، يتكون من فتة التمر بالقشطة والعسل، وسرعان ما اتجهنا إلى شبام ثانية للقاء هود في منزله، لكي نزور معه مدينة تريم القريبة من مدينته.

ما هي إلا فترة قصيرة حتى التقينا به، وفي الحال جلسنا أنا وجمال وهود في سيارة ثاقب وأخذ يطوي بها الطريق السريع طيًّا، وتناهت إلى مسمعي معلومات عنها ردّدها هود بيَّن فيها أننا نبعد عنها مسافة قصيرة تحتاج إلى أقل من نصف ساعة بالسيارة حتى نصل إليها.

وبينما كان ثاقب يغني أغنية حضرمية عن الشوق للقاء الحبيب، كلماتها مستوحاة من رواية «دون كيشوت» الإسبانية التي تزخر بكلام جميل من كلام العرب، التقطت كلام أغنيته بإعجاب، وردّدناها كلنا معه، بدندنة لا علاقة لها بالأنغام الموسيقية.

واصلنا طريقنا في خط مستقيم في البداية، ثم وصلنا إلى مفترق طرق، اتجهنا منه صعودًا إلى رؤوس جبال عالية رأينا منها أطراف المدينة التي نتجه نحوها لزيارتها، ثم انحدرنا من فوق الجبال إلى أسفل، وأصبحت تريم على مرمى حجرٍ منّا، دخلنا أول حي منها، وبعد فترة وجيزة أوقف ثاقب سيارته، وترجلنا منها، وفي لحظة التمعت عيناه عندما رأى صديقًا له أمامه واقفا على عتبة منزله، قدمَنا له وقدمه لنا باسم «تريم»، وكان قد أعلمنا من قبل بأنه اتفق معه لتعريفي على خبايا مدينته.

وهكذا وصلنا إلى المدينة وتلاحقت أمام عيني صورٌ لها كثيرة ممزوجة بحكايا تاريخية من أيام سبأ وحِمْيَر حضرموت، لأنّ تاريخها يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وكانت فيما مضى عاصمة حضرموت القديمة، ومقرًا مهمًّا للملوك.

تطلع تريم من خلف نظارته الطبية عند لقائه بنا، واستذكر في دفق عاطفي أنّ أهله سموه باسمه، تيمُّنًا باسم باني المدينة، الملك تريم بن حضرموت بن سبأ الذي ما زالت آثار قصور زمنه الطينية ماثلة للعيان حتى الآن، بالإضافة إلى قصور طينية أخرى قديمة لها إرثها الفني العمراني، منها قصر «الرناد» بحجمه الهائل، وقصر «عشة» وقصر «القبة»، ويطلق عليها اسم منابر التاريخ اليمني القديم.

بعدها تجولنا مشيًا على الأقدام في المدينة، قضينا وقتًا طويلًا في المشي، وتعرفنا على القصور الطينية القديمة من الخارج، كنا نقف أمامها بين الفينة والفينة، ثم تعرفنا على دهاليز أحد القصور الداخلية، استمتعت بما فيها من نقوش ورسوم جميلة، ولاحظت وجود مئات غرف النوم والصالات الكبيرة وعرش ملك من نسل حِمْيَر حضرموت، مزين بطبقة كثيفة من المجوهرات، ومن ثم كانت مرحلتنا التالية، التعرف على منازل وقصور أخرى تسكنها عائلات حضرمية مشهورة في الزمن الحالي، تتميز بامتلاكها مخطوطات تاريخية نادرة، وسرعان ما وجَّهتُ سؤالًا إلى مضيفنا تريم:

«ألاحظ أنَّ إرث مدينتكم من الزمن القديم، إرث ثقافي تعتز به العائلات التريمية».

أومأ برأسه موافقًا على كلامي، وظلّ على هدوئه صامتًا، وقلت:

«أشعر بالسرور لوجود كنوز نادرة من المخطوطات في تريم، من حقّ كلّ عربي الاعتزاز بها، لأنها ما زالت محفوظة حتى الوقت الحالي».

وافقني القول، ثم قال:

«إنها محفوظة في مكتبة شهيرة اسمها مكتبة الأحقاف، سنزورها بعد قليل لأن مقرها في الشارع التالي».

وجدت متعة في سماع معلومات عنها من مضيفنا، وبينما كنت أجمع شتات أفكاري التي كانت تتقافز بين القصور، وصلنا إلى مقهى على مقربة من مقر مكتبة الأحقاف التاريخية التي تحفظ كمًّا كبيرًا من كنوز مخطوطات العرب النادرة. جلسنا في المقهى، وبينما كنا نرتشف قهوة صبرية اليمنية، تفاجأت عندما قال تريم بفخر كبير:

«كلّ المخطوطات النادرة المصفوفة على رفوف المكتبة قُدمت لها على شكل تبرعات من عوائل المدينة، قُدمت لأسباب عاطفية ووطنية لجعل مدينتهم رائدة في العالم في احتواء المخطوطات النادرة».

دُهشتُ من دقة معرفته بمحتويات المكتبة، وقد برر ذلك لأنه أدارها على أسس حديثة طيلة خمس سنواتٍ، عاش فيها مع مخطوطاتها في إبحارٍ حالمٍ مع الأيام.

وبينما كنا نرتشف الفنجان الثاني من القهوة أخبرني تريم في سياق حديثه بأنَّ في المكتبة مخطوطات باللغة العربية حروفها غير منقطة ظهرت قبل اكتشاف النقط، كتبها الخطاطون القدماء قبل اتباع التنقيط كوسيلة مهمة لإدراك معنى الكلمات المكتوبة في المخطوطات بسهولة ويسر.

تساءلت بنبرة مفعمة بالفرح:

«كم هو عمر أقدم المخطوطات المتوفرة في المكتبة؟».

فأجابني:

«أقدمها ذات الحروف غير المنقطة، يبلغ عمرها نحو ألف وثلاثمائة سنة، وكلّها تمّ تدوينها بخط اليد أو الحفر من قبل الخطاطين القدماء، وتمّ حفظها ككنوز على جانب كبير من الأهمية على مدى الأيام، ويبلغ عدد المخطوطات المتوفرة في المكتبة أكثر من ثلاثة آلاف مخطوطة قديمةٍ، وفيها أيضًا آلاف العناوين لكتب حديثة وكتب أخرى طبعت مع بداية ظهور المطابع في اليمن».

غادرنا المقهى بعد أن ارتشفنا ثلاثة فناجين من القهوة، وبعد خطوات دخلنا صالة القراءة في مكتبة «الأحقاف».

رحّب الموظفون بمديرهم السابق تريم، وبعد أن أعلمهم عن اهتمامي بالمخطوطات التاريخية الخاصة بالصناهجة من حِمْيَر حضرموت، وضعوا أمامي في صالة القراءة عدة مخطوطات عن الصناهجة الذين استقروا في الأندلس والمغرب الكبير، ثم طلب مسؤول صالة القراءة من

زميل له أن تهديني المكتبة صورة عن قصيدة قديمة فيها من الغرابة ما لم أسمع به من قبل.

جلس أصدقائي على مقاعد مخصصة للضيوف في إحدى زوايا صالة القراءة. صمت مسؤول الصالة بعض الوقت، ثم طلب مني أن نتجول معًا بين خزائن المكتبة المكدسة بالمخطوطات، بدأنا التجول، وسرعان ما انتعشت بالمعلومات التي كنت أسمعها من محدثي، وقد اختلطت في أغلبها مع أحداث كثيرة متشعبة من أيام سبأ وعرش بلقيس وسدّ مأرب، وأفعال سيف بن ذي يزن وملوك المملكة الحِمْيَرية بكل ما فيها من دلالات حربية وحضارية.

ذُهلت عندما رأيت بأم عيني المخطوطات غير المنقطة، وتهت في بحر من التأملات عن صعوبة القراءة في أيام أجدادنا دون تنقيط للحروف العربية، حدثت مسؤول صالة القراءة عن التنقيط وعمق أثره على القراءة، خاصة على عامة الناس من غير المبدعين في القراءة والكتابة.

أومأ برأسه بأنه يتفق معي في هذا الأمر، ثم أضاف:

«يمكننا فهم إشكاليات تلك الصعوبة فهمًا عميقًا في زمن الحاسوب، وما فيه من روابط تقنية متآلفة تُسهّل علينا القراءة والكتابة».

صمتَ، ورمقني بنظرة عميقة، وقد شجعتني نظرته على أن أتساءل:

«كيف كان يميز القراء قبل التنقيط بين الباء والتاء والثاء، أو بين الجيم والخاء والحاء، أو بين السين والشين، وكيف يفرقون بين الرجيم والرحيم والرخيم، وكلمات أخرى لا تُحصى؟».

تريث بعض الوقت عن إجابتي، وباح لي بمعلومة مفادها أن بلقيس قد قُرئت في ذلك الزمن البعيد بعدة أسماء: بلفيس ويلقيس ونلفيس وبلفيش، كما كان يظهر الالتباس كثيرًا في قراءة أسماء القبائل والأماكن والأشخاص.

تأكد لي أنه لا يغضُّ بصره عن هذا الجانب السلبي في تاريخ لغتنا العربية، ووجدته يحدثني قائلًا:

«كان يصعب على القراء معرفة نقط الإعراب والحركات التي تَرسم التشكيل أعلى وأسفل الكلمات لضبطها، كالفتحة والكسرة والشدة والضمة والتنوين».

قال كلماته بدقة متناهية، وشرح لي صدري بأمور كنت أجهلها، بعيدة كل البعد عن مشاغلي العملية، وهنا سألته ثانية:

«متى بدأ التنقيط باللغة العربية؟».

فأجابني:

«طلب الخليفة الراشدي الرابع من أبي الأسود الدؤلي، أن يشكل المصحف بالنقط بعد نحو أربعة عقود من الهجرة، ثم جاء بعده الخليل بن أحمد الفراهيدي، ووضع ضبطًا أدق من ضبط الدؤلي، وذلك بعد قرنين من الهجرة، واعتمد في ضبطه على اللغة السريانية».

سجلتُ هذه المعلومات على أوراقي بيدٍ ثابتةٍ، ثم قدمت الشكر لمسؤول صالة القراءة على حسن معلوماته. صمتنا ولم يطل الصمت أكثر من دقيقتين، بعدئذٍ طلب مني أن أتوجه معه إلى صالة القراءة،

فجلست حول طاولة خصّصها لي، ووجدت عليها عدة مخطوطات طلبها من زميله، كما وجدت صورة للقصيدة الغريبة على الطاولة، وتبرع مسؤول القاعة بتعريفي عليها.

وقبل أن يُعرفني على خباياها، جاءني تريم وثاقب وهود وجمال، وطلبوا مني أن أستمتع بوقتي بين المخطوطات، وأنهم سينتظرونني في المقهى المجاور للمكتبة، وفي الحال اتجهوا نحو المقهى، ووضع مسؤول صالة القراءة القصيدة أمامي، وبيّن لي أن غرابتها تكمن في أنّها تكون قصيدة مديح إذا تمّت قراءة كلماتها من اليمين إلى اليسار، وتكون قصيدة ذمٍّ وهجاء إذا تمّت قراءة كلماتها من اليسار إلى اليمين.

في ما بعد قرأ بعضًا من القصيدة من اليمين إلى اليسار:

طلبوا الذي نالوا فما حُرموا
رُفعتْ وما حُطَّت لهم رُتبُ
وهَبوا وما تمت لهم خُلقُ
سلموا فما أودى بهم عَطَبُ
جلبوا الذي نرضى فما كَسدوا
حُمدت لهم شيمٌ فما كَسَبوا

توقف عن القراءة بعض الوقت، ثم أكمل قراءة القصيدة من اليسار إلى اليمين:

رُتــبٌ لهــم حُطــتْ فمــا رُفعــتْ
حُرمــوا فمــا نــالوا الــذي طلبُــوا
عَطَــبٌ بهــم أودى فمــا ســلموا
خلــقٌ لهــم تمّــت ومــا وهبُــوا
كَسَــبوا فمــا شــيمٌ لهُــم حُمــدتْ
كَسَــدوا فمــا نرضــى الــذي جَلبــوا

قرأتها معه عدة مرات، وقد استمتعت بما سمعته من أبيات منسولة من مرجان بحر العرب، تُميزها خصائص نادرة لم أسمع بها من قبل، ولا أكون أمينًا للحقيقة إذا أغفلت تلك الخصائص.

(17)

كان في وسع مسؤول قاعة القراءة، أنْ يلاحظ ابتسامة واسعة رسمتها على فمي، لكي أعبر عما أحسّ به من سعادة داخلية في أعماقي عندما قرأتُ القصيدة، ولا ريب أنه لاحظ سعادتي دون أن تخرج من فمي أي كلمة لامست أذنه.

بعدها سرعان ما راودتني رغبة أنْ ألامس طيف القصيدة مرة أخرى، في الحال اعتدلت في جلستي وفتحت عينيّ، ثم ضممت قبضتي بأشد ما أستطيع من قوة وضربتها على الطاولة، وأنا أقول:

«هذه القصيدة لا يجود بها إلا شعراء اليمن السعيد مهد بلاد العرب».

رمقني مسؤول قاعة القراءة طويلًا، كأنه يراني في تلك اللحظة لأول مرة، ثم شدّ على يدي اليمنى وقال بغبطة ظاهرة لا يشعر بها إلا الأصدقاء، وفجأة بين لي بكلمات معدودة أنَّ شاعر القصيدة هو ابن المقري اليمني، نظمها قبل ستة قرون، وقد وجهها إلى ملك من ملوك المملكة الرسولية، التي حكمت في جنوب الجزيرة العربية.

ثم أسرع بالقول ثانية:

«أتركك لكي تُقلّب المخطوطات التي خطها كُتابنا القدماء عن قبائل الصناهجة، وعن قبائل الأمازيغ الذين أثبتوا في مخطوطاتهم أنَّ كلَّ هذه القبائل من العرب العاربة من نسل حِمْيَر حضرموت».

وفي الحال سألته:

«هل كلّ الكُتّاب القدماء من اليمن؟».

بادرني قائلًا:

«أجل، كلّهم من كُتاب اليمن، كان هدفهم مزدوجًا للكتابة عن القبائل الحِمْيَرية التي هاجرت من بلادنا في الزمن القديم، فمن ناحية أرادوا إثبات الأصول العربية لتلك القبائل، ومن ناحية أرادوا معرفة مقام تلك القبائل خلال تاريخهم في المهجر، في مجال الجاه والحكم».

شكرته واعتدلت في مقعدي، شعرت بسعادة لا توصف وأنا أقلّب بأصابعي صفحات مخطوطات من أهم المصادر التي اطلعت عليها في حياتي، وبعد لحظات قليلة تصفحت مخطوطة تركّز في معلوماتها على صناهجة المغرب الكبير.

وجدت فيها أن الحظ ضرب موعدًا مع الصناهجة في عهد الدولة الفاطمية، عندما ولوا عليها أميرًا صنهاجيًّا في المغرب هو بلكين بن زيري بن مناذ الصنهاجيّ، بعد انتقال قيادتها التاريخية إلى مصر.

وأثارني في المخطوطة نفسها ما هو مكتوب عن المعتز بن باديس بن المنصور الصنهاجيّ الذي خرج على الدولة الفاطمية، ثم تُوج ملكًا وأصبح من صفوة ملوك الصناهجة.

وفي مخطوطة أخرى قرأت عن باديس بن حبوس الصنهاجيّ ثالث حكام غرناطة في عهد ملوك الطوائف في غرناطة، بدت المعلومات المسجلة عنه كأنها نسيج مذكرات شخصية، سجلت بعضًا منها على

أوراقي، ووجدت فيها أدلة جديدة على عظمة الحاكم الكبير باديس، وامتداد نفوذه في مدن أخرى مهمة في الأندلس.

ووجدت في مخطوطة ملأى بمعلومات عنه، أنه ذات يوم بينما كان يلعب الشطرنج مع أحد وزرائه، التمعت أشعة الشمس في عينيه وهي تتلألأ فوق هضبة تمتد على الطرف المقابل للمكان الذي يجلس فيه في غرناطة، توقف في الحال عن اللعب، وقال لوزيره بصيغة الأمر:

«انقل للوزراء أمرًا مهمًّا يتم على أساسه بناء قصر سأطلق عليه اسم قصر الحمراء، أريده أن يكون جوهرة قصور كلّ دول العالم، تتذكره الأجيال القادمة لكونه من مآثر الصناهجة في فنّ العمارة». وقد قدر له تشييده وبناء سور حوله وقلعة عالية تعانق السحاب، وأقام إلى جانبه حدائقَ على امتداد المكان مليئة بمختلف أنواع الأشجار والأزهار.

إنّه قصر الحمراء الذي ما زال موجودًا حتى الآن، خلَّد به الحاكم اسمه على مدى الأيام، وجعل غرناطة مدينة صنهاجيّة ببناء هذا القصر، صاحبة أمجاد تاريخية في فنّ الحضارة العمرانية الإنسانية.

تهيأت لإطلاق صوت عالٍ لتمجيد صناهجة غرناطة، كنت أشعر بحماسة شديدة للتأكيد على جذورهم العربية التي امتدت قبل آلاف السنين في أرض اليمن، بعدها جلت ببصري بين سطور مخطوطة أخرى فيها معلومات عن دور الصناهجة في تأسيس دولة المرابطين.

بعد فترة وجيزة دخل أصدقائي ولاحظت أنّ وجه هود ممتقعٌ وعليه إشارات حزن، في الحال أخبرني أنّ زوجته أعلمته أنَّ والدها فارق الحياة

في مدينتها سيئون، وأنّ عليه مغادرتنا للمشاركة في تشييع جنازة عمّه، قدمنا له تعازينا القلبية، وبينما كانت أيادينا تتأرجح في وداع هود، قدم اعتذاره لعدم قدرته على تقديم وجبة الغداء في بيته في شبام التي تمّ تجهيزها، وقال لأصدقائه:

«أوصيكم بالعناية بضيفنا، ستجدون في تريم مطاعمَ كثيرة تختص بتقديم ما طاب من الأكل اليمني».

خرج هود من المكتبة، وقدمت الشكر لمسؤول صالة القراءة على مساعدتي، وأرجعت له المخطوطات التي اطلعت عليها، وتمنيت أن أزور المكتبة في زيارة قادمة لليمن، حتى أحصل على المزيد من كنوزها الثقافية النادرة.

خرجنا أنا وواثق وجمال وتريم من المكتبة. مشينا على الأقدام باتجاه مطعم يقع على مقربة من قصر «الرناد»، وفي لحظة قال ثاقب بصوت حزين:

«رحم الله ميتنا، إنه أحد القضاة الكبار في سيئون، وقد تعرفت عليه من خلال نسيبه هود وزوجته، وكان من دعاة الوسطية والاعتدال في كل مواقفه وضد التطرف والغلو في الدين».

بعدها كررنا أكثر من مرة لازمة «رحمه الله» ثم قلت لأصدقائي:

«لا شهية لي للأكل وصديقنا هود يتقبل العزاء عند قبر عمه في مقبرة سيئون».

لم يتردد أصدقائي بالموافقة على ما قلته لهم، ولاحظت أن جمال يشد على راحتيه ويثبتهما على الطاولة التي نجلس حولها ويباغتنا قائلًا:

«نكتفي فقط بشرب القهوة السادة التي تقدم عادة في بيوت العزاء».

بعد شرب القهوة السادة عدنا أدراجنا إلى مدينة سيئون، وما كدنا نصل إليها حتى كنا في بيت عزاء فقيد القضاء الذي يقدره كل أهل حضرموت ويعتبرونه من أهم أعلام البلاد، قدمنا واجب العزاء لكل الموجودين، ثم جلسنا على مقعد طويل بجانب هود.

بعد فترة وجيزة خرجنا من بيت العزاء، ثم وقفنا مع هود في ساحة قريبة، تبادلنا أطراف الحديث عن المعلومات التي استقيتها من مخطوطات مكتبة الأحقاف عن أجدادنا من قبائل اليمن السعيد.

بعدئذٍ ودعت تيم وهود وتمنيت أنْ ألتقي بهما ثانية في قادم الأيام.

رجعنا أنا وجمال إلى بيت ثاقب قبل أن يهبط الليل، وبينت له أن الأكل قبل النوم يخلّ بالصحة السليمة، لهذا اكتفينا بشرب عصير الليمون وعصير التمر، وحظينا ببعض الوقت لمشاهدة برامج التلفاز، وسمعنا أخبارًا لا تسرّ البال عن تنظيم متطرف يدعي النضال من أجل إعلاء كلمة الدين، وأتباعه من الدين الصحيح براء، يكفرون كلّ المسلمين ويقتلون الأبرياء.

تنحنح جمال وقال وهو يترصد ما يسمعه بكلام حاسم:

«هؤلاء على وشك اتباع دين تكفيري جديد لا علاقة له بالدين الذي ورثناه عن الآباء والأجداد، سوف يصبغون سجاجيد الصلاة بالدماء ويرملون نساء الرجال من المثقفين وأصحاب الفكر التنويري المعاصر».

(18)

لم يبق من إجازتي في اليمن سوى ثلاثة أيام، سأقضيها في منطقة المهرة في رحاب منزل جمال، بعدها علي أن أعود إلى الكويت، لممارسة عملي، الذي لا أحبّه، وأشعر دومًا أن الوظيفة مهما كانت درجتها، فهي ممزوجة بقيود شبيهة بقيود العبودية.

تمالكت نفسي بعض الشيء، ثم قلتُ لجمال وثاقب بجدية واضحة:

«كلماتي منقولة عن جان بول سارتر، وقد ردّدها كثيرًا في مسرحياته، على لسان شخوصها، وأنا على قناعة بصحة أفكاره، رغم أنني لستُ من أنصار الفلسفة الوجودية».

وبينما كنا نتكلم عن عبودية الوظيفة غامت عيناي، وشعرت أنني على وشك الاستسلام للنوم، في الحال اتجهت مع جمال إلى جناح الضيوف، ودخل كلٌّ منّا غرفة نومه، وأحسست أنني خارج المكان أغط في نوم عميق.

أفقنا في صباح اليوم التالي، وانصبَّ اهتمامي على تجهيز حقيبتي للسفر إلى الغيضة مدينة جمال، ثم اتجهت نحو صالة الجلوس، ووجدت جمال بانتظاري، وبينما كنا نقترب أكثر فأكثر من ساعة السفر، طلب منا ثاقب أن نتناول الإفطار في بهو واسع بأربع شرفات كبيرة مفتوحة من كلّ الجهات يقع في صدر المنزل، اتجهنا إليه في إحدى الشرفات، وقد راقني الجلوس فيها، وشعرنا بنسائم ربيعية تهب علينا من الجهة الشرقية.

وجدت أنَّ جمال يجول بنظره في جهة الغرب، ثم حدق بوجهي قائلًا:

سننطلق في مسيرتنا باتجاه الشرق، في مواجهة تلك الرياح الربيعية، وبينما كنا نتحدث عن الطريق التي سيسير فيها بسيارته بعد قليل، تناولنا إفطارا يتكون من فتة الموز بالعسل ثم خرجنا من المنزل، وسرعان ما ودّعنا ثاقب وغمرنا بكلمات وداع قالها بمشقة، لأنه أراد أن نبقى بضيافته أيامًا أخرى.

هذا ما طلبه مني، ورغم رغبتي في البقاء اعتذرت له لصعوبة تلبية طلبه، لارتباطي ببرامج عمل وظيفية يصعب تغيير مواعيدها، وظهر له وانا أودعه مدى حزني لمغادرة سيئون.

جلس جمال خلف مقود سيارته، وجلست بجانبه، ووقف ثاقب بقامته الطويلة على عتبة منزله ولوحنا بأيدينا للتعبير عن الوداع، ثم شغّل جمال سيارته، نظرت حولي فوجدته يأخذ طريقًا تتجه نحو الشرق، وقال لي بصوتٍ خافتٍ ها نحن بدأنا مسيرتنا نحو مدينة الغيضة عاصمة محافظة المهرة التي تقع في أقصى شرق اليمن، وتعتبر ثاني أكبر محافظاته بعد حضرموت، ويُطلق عليها اسم البوابة الشرقية لليمن. وبيَّن أننا نحتاج إلى نحو ثلاث ساعات حتى نصل إلى منزله هناك.

تعالى صوته وهو يؤشر بإصبعه إلى الهضاب وسلاسل الجبال العالية التي نمرّ بقربها، وكذلك المروج الخضراء المحشوة بالأشجار، واستدرجني بحديثه لتعريفي بشجرة البلسم التي كانت معروفة في اليمن في فترة ما قبل الميلاد، وبيّن بلغة العالم بها أنها تنمو على تلال صخرية

جافة ينبعث منها عند سحق صمغها رائحة طيبة، واعتبرت في الماضي مادة لعلاج بعض الأمراض، وتعرفت عليها أوروبا قبل نحو قرنين فقط عندما أخذت بعثة علمية أوروبية بذورها من اليمن.

اقتربنا من تلك الأشجار عندما اتجهنا صعودًا في طريقنا، وسرنا فترة من الوقت قرب سلسلة صخرية تنمو في شقوقها أشجار البلسم التي تزيد أنواعها عن ألف نوع تتباهى بزهورها الملونة.

كنت على وشك النوم من اهتزاز السيارة، ولكي أبقى صاحيًا ذكر لي جمال معلومات إضافية عن مدينته عاصمة محافظة المهرة.

التفتُّ إليه وسألته:

«ماذا عن الصحراء والبحر؟».

فأجابني:

«تتصل بلاد المهرة من الجهة الشمالية بصحراء الربع الخالي، وتقع على شريط ساحلي غني بالأحياء البحرية، وتمتد شواطئها على امتداد مسافات طويلة على البحر الأحمر وبحر العرب».

لفتت انتباهي وفرة الحيوانات البرية التي تغمر الغابات الواسعة الممتدة حول الطريق، وما هي إلا لحظات حتى كنّا على مقربة من مجموعة حيوانات تتقدمها الأسود والنمور، تحاول أنْ تباغت حيوانات صغيرة كالأرانب لتجعل منها عشاءً شهيًّا، وكدت أقفز من السيارة لأحميها وهي تقفز بسرعة على قوائمها، وتصرخ بأعلى أصواتها، وتحاول الاختباء في شقوق الصخور.

شاركني جمالٌ تأملاتي وتساءل:

«من أكثر قدرة على تحمل سطوة الكبار الإنسان أم الحيوان؟».

فأجبته:

«الحيوان لأنَّني قرأت في كليلة ودمنة ما يؤكد هذا القول».

ضحكت مع جمال دون تكلفٍ، وقلتُ:

«إنَّ الحياة ساحة مسرح كبير للأعاجيب، نحن فيه نمثل الحكايا التي نختلقها ونحن فيه المتفرّجون أيضًا».

أدرك جمال معنى ما قلته، وتمتم بصوت خفيض:

«لا دور للحكماء في حياتنا، لا يذكرهم التاريخ، إنّه يذكر فقط جلجلة السيوف، وغرس الرماح في الصدور، وصبغ التراب بالدماء على مدى العصور».

شعرت أنَّ جمالًا يرغب في الغناء، وأكثر من مرة سمعته يدندن بكلمات بلهجة المهرة، ثم يصمت ويتذكر موت القاضي عمِّ صديقه هود، وأسمعه يقول بحماسته المعهودة بصوت هادئ: «رحم الله فقيدنا الكبير الذي دفناه في سيئون»، ثم يرمقني بطرف عينه اليسرى، ويعود للحديث ثانية عما تجود به الطريق من معلومات عن أرض المهرة. وفي لحظة كان فرحًا وهو يشير بإصبعه كي أرى عن بعد طرف بحر العرب القريب من مدينته الغيضة.

أتاح لي فرصة كي أرى ذاك البحر الذي كنت أحلم دومًا بأنّه جزءٌ من ممتلكات أجدادنا من نسل حِمْيَر حضرموت، والآن أشعر أنه ملك كلّ

قوي لأنَّ سيف بن ذي يزن الذي حرر اليمن من احتلال الأحباش مات منذ زمن طويل.

همست بما أفكر به، وسمعني جمال وقال محتجًا بصوت متهدج:

«إنّه بحرنا، أمواجه من رذاذ ندى العرب».

سألته:

«هل رذاذ ندى فلسطين يغمره يا صديقي؟».

سكت جمال ولاحظت بريق دمعة من دموع الرجال تتهادى في عينيه، ذكرته بمجد أساطيل العرب وهي تجوب البحار القريب منّا في كلّ الاتجاهات.

لاحظت تقطيبة على وجهه وقال بصوت حزين:

«كانوا سادة البحار، ورصدَت المصادر الجغرافية القديمة اكتشافاتهم المبكرة للقارة الأمريكية قبل كولومبس».

قُلتُ بافتخار زائد:

«أجل اكتشفها بحارة من عرب الأندلس من نسل حِمْيَر حضرموت، وذكرهم كولومبوس في مذكراته التي نشرها بعد تحقيق اكتشافاته المعروفة، كما ذكرتهم بعض المصادر الغربية، ذكرتهم بأسمائهم، وتحدثت عن دور كبير لأحدهم، واسمه ابن فروخ الغرناطي».

ألصق عينَيْه بموج بحر العرب وسألني في غمرة عاطفية:

«هل تعرفت على أسمائهم وتفاصيل رحلاتهم؟».

فأجبته بمزيد من الثقة وأنا أجول ببصري بين أمواج البحر القريب منّا:

«أجل، تعرفت على أسمائهم، وكتبت عنهم».

التقط كلماتي بإعجابٍ، وتشعب الحديث عن مجد الحِمْيَريين في الأندلس، وأبحر جمال في أعماق تاريخهم الطويل الذي وهب إسبانيا معالم حضارية ساعدتها على دخول عصر التنوير والنهضة، قبل غيرها من دول أوروبا التي كانت غارقة في الظلام والتخلف في غياهب العصور الوسطى.

بعد ذلك بقليل عاد جمال للحديث عن صناهجة غرناطة من جديد، وأضاف معلومات جديدة عن حاكمها باديس بن حبوس الصنهاجيّ باني قصر الحمراء.

وبينما كانت السيارة تبطئ من سرعتها، لفت نظري رفيق رحلتي إلى أننا على بعد أمتارٍ من مدينته الغيضة.

(19)

لاحظت إشارات السعادة مرسومة على محيّا رفيق رحلتي لأنه وصل إلى مدينته الأثيرة على قلبه، ولأنه بعد قليل سيلتقي بأسرته التي غاب عنها فترة من الزمن.

بعد ذلك سرعان ما قال:

«نسير الآن في شارع الكورنيش، الواجهة الساحلية لمدينة الغيضة، لم أستطع نزع بصري عنه وعن أهل المدينة وهم يتجولون على امتداده، يجلسون تحت أشجار وارفة الظلال عند أطرافه، بقربها سلسلة من أحواض مزروعة بأجمل الزهور من فلّ وياسمين وريحان».

أبرقت عيناه فجأة، وأثار عاطفتي عندما طلب مني بصوت متهدج:

«أريدك أن تعدني بأن تعرّفني على بحر حيفا بعد تحريرها من براثن الاحتلال، ونجوب معًا شاطئها ذهابًا وإيابًا في الصباح والمساء».

سدّدت عليه نظري وقلتُ:

«أعدك يا صديقي، العودة قادمة لا محالة مهما طال الزمان».

خيم السكوت علينا بعض الوقت، بعدها غادرنا منطقة الكورنيش، ومضى رفيق رحلتي في طريق تتجه صعودًا نحو الجهة العلوية من المدينة، وبينما كان يردّد على مسمعي بعض المعلومات عن مدينته، توقف أمام بيت يتألف من أربعة طوابق، جدرانه الخارجية مصبوغة

بأجمل الألوان كأنها سجادة عجمية منسوجة على منوال محكم، تداعبه أصابع نسوة بقدهن الجميل.

ترجلنا من السيارة وأنبَأني بأننا أمام بيته. في الحال خرج من البيت أحفاده الثلاثة ليث ونديم وليانا، ضمّهم إلى صدره، ثم رفع حفيدته ليانا إلى أعلى وهي تسأله بحنان:

«لماذا غبت طويلا يا جدي».

قال:

«لأنني عرَّفت صديقي على جزء من بلادنا».

تحدّث مع الصغار بلهجة المهرة الحِمْيَرية، ثم أفاض بترجمة حديثه مع أحفاده إلى العربية الفصحى، وعلمت ما دار بينهم من حديث.

بعدها دخلنا منزله وعرفني على أهل بيته، طالت جلستي معهم في صالة الجلوس، أعلمتني زوجته انها دعت أهم أصدقاء زوجها لتناول العشاء بمناسبة زيارتي بلاد المهرة لأول مرة في حياتي، قالت كلامًا مشبعًا بدلالات كرمٍ عربيٍ أصيل، وطلبت مني أن أدخل غرفة نومي في جناح الضيوف لأخذ قسط من الراحة فالمدعوون سوف يتقاطرون بعد ساعتين. سلمتها الهدايا المرسلة من صارم وضاري وداغر، واتجهت من فوري نحو غرفة النوم، ولاحظت أنها كبيرة وتتسع لأسرة بكاملها. من شدة التعب ألقيت نفسي على سرير مريح، وأغلقت عيني بلا تردّد، فتهت في بحور أحلامٍ كثيرة، فيها إشارات تفصيلية لتخيلات لا حدّ لها،

وجدتني فيها في قارب صغير يتسع لشخص واحد، مجدافه مكسور من وسطه، وتتقاذفه الأمواج من كل الجهات.

بعد ذلك أفقت من النوم، وتمكنت من استشفاف جزيئات من حلمي، أعلمت جمال عنها، وضحكتُ معه لأننا لا تثيرنا الأحلام مهما كانت مضامينها، ورغم تمتعنا بهذه الميزة بادرني مضيفي قائلًا:

«لا تخشَ القارب الصغير لأنَّ قاربي من النوع الكبير يتسع لعشرة أشخاص، وله محرك آليٌّ ضخم قوته قوة سبعة أحصنة».

أومأت برأسي إيجابًا، وعقّبت بجملة معبرة:

«آمل أن تكون من نوع الأحصنة العربية الأصيلة التي كان الحِمْيَريّون يهزمون بها أعداءَهم من أهل الحبشة».

ضحكنا معا ثم قال:

«ستلاحظ قوة قاربي وهو يناطح الأمواج في عباب البحر، أستطيع به أن أعبر المحيطات وأكتشف قارتي أمريكا الشمالية والجنوبية، كما اكتشفهما نسل حِمْيَر حضرموت الذين هاجروا من اليمن واستقروا في ديار الأندلس».

وبينما كنت أجمع شتات أفكاري عن صناهجة إسبانيا الحاليين، وصل أحد الضيوف من أصدقاء جمال. في الحال انتقلت معه إلى صالة الجلوس، وقدمني إلى صديقه همام، الأستاذ المتخصّص باللغة الحِمْيَرية، وله إنجازات كثيرة في مجالها وفي مجال مقارنتها باللغة العربية الفصحى.

وبينما كنت أتابع حديث جمال مع صديقه، جاء بقية الضيوف فاكتمل عددهم وتهت في لهجتهم الأمهرية لعدم إتقانها، وطلب منهم مضيفنا أن نحصر الحديث باللغة العربية الفصحى التي يعرفها كلّ الحاضرين. هنا وجدتني أطلب من همام أن يعرفني على لهجتهم التي هي لغة التواصل مع المهرة في اليمن وفي الدول العربية المجاورة التي يمتزج سكانها بأعداد كبيرة من المهرة.

شرح لي بلغة الخبير المختص بإيجازٍ حتى لا أضيع من وفرة المعلومات اللغوية، وبيّن أنَّ المهرة يتخاطبون في حياتهم اليومية باللهجة الأمهرية الدارجة، وهي مشتقة أساسًا من اللغة الحِمْيَرية، وتتكون هذه اللغة من الأصوات العربية، إضافة إلى ثلاثة أصوات أخرى لا توجد في أي لغة أخرى في العالم.

ثم أضاف مستطردًا، أنَّ الأرقام والأعداد في اللغة الحِمْيَرية لا تكتب وإنما تلفظ فقط، وكلّ عددٍ فيها له تسميته الخاصة به، وتابع حديثه بينما كانت الأفكار تدور في رأسه سريعة، وبيَّن أنَّ ثمة تقاربًا كبيرًا ما بين اللهجة الأمهرية المعاصرة واللغة العربية الفصحى، وحدّدها بخصوصية واضحة لأن معظم أفعالها تتقارب مع الفصحى في اللفظ والدلالة، كما تتوافق الأسماء فيها مع الفصحى، وكذلك أعضاء الجسم والألوان وألفاظ العدد.

خيم الصمت بعض الوقت، ثم سألته عن أوجه التقارب الأخرى، وسرعان ما أجابني عن وجود تطابق بين اللهجة الأمهرية واللغة العربية

الفصحى في الصيغ الفعلية، وتقسيمات الفعل المعروفة بصيغ الماضي والمضارع والأمر، وتقسيمات الضمائر المعروفة بما يُسمّى المتكلم والمخاطب والغائب. ولم يفُتْه أنْ يضيف أيضًا عن وجود مجالات أخرى للتطابق من بينها أبنية المجهول. كما بيَّن أنَّ اللهجة الأمهرية تمتزج في الزمن المعاصر بعناصر لغوية عربية من جنوب الجزيرة العربية.

فجأة سألته:

«هل غير المهرة يفهمون لهجتكم».

أجابني:

«يفهمها الأمازيغ في المغرب الكبير».

قُلت بأعلى صوتي في دفق عاطفي مؤثر:

«هذا ما توقعته لأنهم من نسل حِمْيَر حضرموت ويرجعون في أصولهم إلى العرب العاربة، وتنتمي بعض قبائلهم إلى الصناهجة».

جُلت ببصري يمنة ويسرة في محيط الصالة الواسعة التي نجلس فيها، طلبت من أحدهم واسمه «ساجي» بجانبه آلة عود زريابي من بقايا قرطبة، أنْ يعزف لنا على أوتاره قطعة موسيقية من موسيقى المهرة.

استجاب لطلبي وشنف آذاننا بمقطوعة جميلة أردت بسماعها أنْ أعبر عن فرحي لمعرفة الأمازيغ لغة أجدادهم الحِمْيَريين، إذ يجمعهم بهم خيط أثيري لا يحسّ به إلا قلة قليلة منهم.

(20)

استمر بصري بالتنقل بين الجالسين، وتأكدت أنهم كلّهم يعلمون حقيقة علاقتهم مع الأمازيغ، وعلق أحدهم واسمه جروان، وبيَّن لي أنّه كان ذات يوم سفيرًا لليمن في الرباط، وثبَّت علاقات أخوة حقيقية مع مجموعة من الأصدقاء من الأمازيغ، وكان في مقدوره التحدّث معهم بلهجته الأمهرية، ولم يشعر بأدنى صعوبة في التفاهم معهم.

ثم أضاف أحد الحاضرين واسمه يزن وبيَّن أنَّ عمله في مجال السياحة جعله على علاقة دائمة مع سياح من الأمازيغ، الذين يكثرون من زيارة بلاد المهرة لمعرفتهم اللهجة الأمهرية التي حملها أجدادهم معهم عندما هاجروا في قديم الزمان، ومنهم من يهتمّون أيضًا بزيارة آثار عرش بلقيس والبقايا الباقية من سدّ مأرب القديم، وكلّ المدن الحضرمية.

وبين في سياق حديثه أنه يعد لهم برامجَ خاصة بهم، يتحدث في إطارها خبراء من المهرة عن أصولهم العربية، في إطار جرعات تاريخية يزينونها بحكايا عن بلقيس وسيف بن ذي يزن، وعن انهيار سدّ مأرب.

اجتاحني إحساس دافئ بالراحة، لما سمعته من أحاديث شفوية عن العلاقات الحميمة التي تجمع المهرة بالأمازيغ، علاقة تنمو مع الأيام بسبب جذورهم العربية المشتركة التي تتشابك مع جذور حِمْيَر حضرموت منذ آلاف السنين.

بعد سماعي لهذه المعلومات المهمة، عاد ساجي للعزف على أوتار عوده، وأسمعنا أغنية رقص على أنغامها الحاضرون، تشابكت الأيدي وتمايلوا على اتساع المكان، وكانت مشاركتي الرقص معهم محطّ أنظارهم.

بينما كنا منهمكين جدًّا بالرقص، طلب منا مضيفنا أن نتَّجه إلى صالة الطعام، قال لنا بصوته الجهوري:

«علينا الآن إعطاء بطوننا ما تحتاجه من سمك بحر العرب».

جلسنا حول طاولة كبيرة رُصّت عليها مجموعة أطباق خاصة من السمك، وتلقّينا بيانًا من جمال بأنَّ السمك يؤكل باستخدام الأيدي، وأرفق ببيانه توضيحًا بأن سيدة البيت اختارت لعشائنا سمك القاروس وسمك الفرخ وسمك السلمون المرقط وسمك الهابوت، واختارت أيضًا من أجود ما لديها من الجمبري والكركند.

انتهينا من تناول الطعام عند انتصاف الليل، ثم خرج الضيوف بعد أن اتفقوا مع جمال على برنامج الغد، دخلت غرفتي في جناح الضيوف، وألقيت نفسي على السرير المخصص لي واستسلمت لسلطان النوم.

***

أفقت مبكرًا في صباح ربيعي جميل أغرتني فيه زقزقة الطيور التي كانت تتقافز فوق أغصان أشجار حديقة المنزل، بعدها انتقلت إلى صالة الجلوس ووجدت مضيفي بانتظاري، استرعى انتباهي اهتمامه بسهرة الأمس، وبينت له أنني قضيت في بيته أجمل الأماسي، وأنني فرحت بما

سمعته عن علاقة المهرة بنسل حِمْيَر حضرموت من الأمازيغ البربر الذين استقروا منذ فترة طويلة خارج اليمن.

بيَّنت له أنني ألتقطُ في بيته كمًّا كبيرًا من المعلومات كنت بحاجة لها، وسرعان ما أخبرني أنَّ برنامج اليوم سنقضيه في قاربه بين أمواج بحر العرب، وسيرافقنا في رحلة طويلة كلّ الأصدقاء الذين تعرفت عليهم أثناء سهرة الأمس، ووعدني بسماع أغانٍ كثيرة في الرحلة لأنَّ المهرة يعشقون الطرب والغناء ويستمتعون بسماع الشعر والموسيقى.

تناولنا إفطارنا على عجل، واتجهنا مع أحفاده ليث ونديم وليانا مشيًا على الأقدام نحو الشاطئ القريب الذي يحتفظ فيه جمال بقاربه في مكان واسع خاص بتوقيف القوارب، وحال وصولنا وجدنا أصدقاءنا بانتظارنا بجانب القارب، ألقينا عليهم تحية الصباح، ثم فكّ مضيفنا وثاق قاربه المثبت على قاعدة حجرية من قواعد الشاطئ، بعدها جلسنا على مقاعد مريحة مصفوفة بإتقان على طرفي القارب، وسرعان ما شغل بحارنا جمال محرك قاربه، وأعلن عن بدء رحلتنا إلى محمية حوف الطبيعية. أجال البصر بين ركابه، وقال وهو يرفع يده إلى أعلى معبرًا عن إشارة القسم:

«أعدكم أنْ أعيدكم سالمين إلى منازلكم».

ضحكنا مطولًا، ثم أجبناه:

«لا نشكّ في صحّة وعدك، خاصة أنَّ أحفادك يلهون معنا على متن القارب».

كان القارب يشقّ طريقه ببطء على امتداد شاطئ الغيضة، رمقني بحارنا طويلًا، ثم عرفني بأهم مزايا شاطئ مدينته، وأدهشني ما يحويه من مراكز كثيرة للصيادين، يعرضون فيها ما تحويه شباكهم من أسماك بعد رحلات الصيد. بعد ذلك وجه قاربه إلى أجزاء البحر العميقة وأخذ يداعب صفوف الأمواج الهائجة المتجهة إلى الشاطئ، اجتزناها وتأكدت من قدرة بحارنا في مصارعة الأمواج، وتأكدت أيضًا أنه من البحارة الأشداء، الذين يمكنهم اجتياز المسافات الطويلة المثقلة بالأخطار.

اتسعت دائرة مصارعة القارب للأمواج، في وقت كنّا نسير فيه في خط متعرج نعلو فيه ونهبط وفق إيقاع ما تمليه علينا الرياح.

في تلك الأجواء سرعان ما أعلمنا بحارنا بأننا على مقربة من أبواب ميناء نشطون الذي هو من أهم موانئ اليمن، وبينما كنّا نرى عن قرب اتساع رقعته المكانية، أخذ بحّارنا يحدثنا عن بحر العرب، استرخى في مقعد القيادة وأخذ يتحدث عن دلالات جغرافية خاصة به، بيّن فيها أنّه جزء من المحيط الهندي، ويقدر عمره بخمسين مليون سنة.

فيما بعد أضاف بافتخار واضح أنَّ الطبيعة خصّت المهرة بشريط ساحلي طويل على بحر العرب، يصل طوله إلى نحو خمسمائة كيلومتر.

في تلك اللحظة احتضن ساجي عوده، قرّبه من قلبه، وأخذ يردّد أشهر أغنية يعشقها المهرة، وعنوانها «المهرة حوت كلّ زين» ويشبه لحنها الألحان الخليجية، وتردد كلماتها كلمة «دانا»، أي حبة اللؤلؤ الكبيرة التي يبحث عنها صيادو اللؤلؤ في قيعان الخلجان والبحار بما فيها بحر العرب.

أصغيت باهتمام لغناء الجميع مع عازف الألحان على أوتار عوده، وأثارني رقصهم لأنهم كلّهم مسكونون بالرقص، رقصوا على متن القارب وأجاد الأحفاد الرقص خاصة ليانا التي أبدعت وهي تهز أردافها، ويداعب الريح شعرها الطويل، ينثره بحركات راقصة في كل الجهات.

أثارتني الأغنية كثيرًا على امتداد خط رحلتنا، واتسعت معها دائرة الرقص على متن القارب، ولم نشعر بأثر هزاته صعودًا وهبوطًا وهو يرقص أيضًا بين الأمواج، تابعنا طريقنا وطابت لي رؤية السياح الأجانب وهم حولنا يجوبون البحر بقوارب مخصصة للسياح، تساءلت قائلًا:

«أين هم السياح العرب لكي يتعرفوا على كنوز ثروة بحر العرب السياحية؟».

وضع همام يده اليمنى على جبينه، وحكّه بلطف وألقى عليّ نظرة وقال:

«السيّاح العرب يستمتعون بزيارة الدول الأجنبية، تثيرهم لكنة لغاتهم، ولا يستمتعون بكنوزنا السياحية، ولهجتنا الأمهرية التي تحمل بصمات حضارية ظهرت على أرضنا مع بداية التاريخ».

أومأت برأسي موافقًا على ما قاله همام، وكذلك فعل كلّ الأصدقاء، وقد وجدت متعة بحديثه لأنّه وضع إصبعه على إشكاليات استفحلت في العلاقات العربية العربيّة، وبسبب ما قاله أَجَلتُ بصري في وجوه الجميع، وشعرت بصفتي ابن نكبة بأنهم إخوتي، ومن أبناء بلدهم شهداء مزجوا دمهم بتراب فلسطين، ونما قرب أضرحتهم أشجار اللوز والرمان والزيتون، وامتدت جذور النجيل وأينعت أجمل الزهور.

(21)

كان بحارنا يقود قاربه في أجواء هادئة طبيعية، صمت الجميع بعض الوقت، وكانت تدور في خلدي مشاهد قاسية استحضرتها من تاريخ العرب الحديث، مشاهد مؤثرة أحصيت فيها ما بقي لنا من ماضينا المجيد، وقلت لأصدقائي بصوتٍ عالٍ: «لم يبق لنا مع تعاقب الأيام سوى حكايا نردّدها كالعجائز، كما أفعل أنا، أحاول جاهدًا أنْ أثبت أن الصناهجة من حِمْيَر حضرموت؛ أي من العرب العاربة من جنوب الجزيرة العربية من أبناء قحطان».

أقر أصدقائي صحة ما قلته لهم، تدافعوا في الحديث بأمثلة مثيرة تناثرت حولي، يصعب تفنيدها لأنها علامات بارزة في مجرى الحياة، بعدها سرعان ما عدنا للغناء ثانية، وردّدت معهم أغنية «المهرة حوت كلّ زين».

وعلقت قائلًا على مسمعهم:

«يكفي أنها تحويكم أيُّها الأصدقاء، وأشعر معكم بأنني أعيش في كنف بلدكم منذ أقدم الأزمان».

صفقوا كلهم وقالوا بصوت واحد:

«أنت منّا».

ألقيتُ نظرة على بحارنا فوجدته يعد العدة لإلقاء بيانٍ حول مسار الرحلة، وفي الحال وقف بجانب كرسي القيادة، وأعلن قائلا:

«اجتزنا المسافة التي تفصل الغيضة عن محمية حوف الطبيعية الساحرة، وبينت لكم في الصباح أن زيارتها هدف رحلتنا البحرية، ونحن الآن على مقربة منها على أطراف ساحلها وهي من أهم المحميات البرية في اليمن، ولها سمعة عالمية في مجال المحميات البرية التي تحاذي البحار».

ثم أضاف بسعادة ظاهرة:

«حصلت الآن عبر جهاز اللاسلكي على موافقة الجهة المسؤولة عن استقبال القوارب السياحية، وأجازوا لي الوقوف في موقف يقع في الجهة الغربية من المحمية التي تكثر فيها الحيوانات البرية».

خفّف بحارنا من سرعة قاربه ودخلنا المحمية البرية ببطء شديد، وأخذ يقترب من اليابسة شيئًا فشيئًا، وفي لحظة قفز حفيده ليث واستقر واقفًا على الأرض، واتجه نحو وثاق القارب وثبّتَه في المكان المخصص لوقوف القوارب طيلة تجوالنا في المحمية.

نزلنا تباعًا من القارب، وسرنا خلف بعضنا البعض للتعرف على المحمية، ووجدت مساحتها فائقة الضخامة تشبه مساحة مدينة ساحلية تنام وتصحو على صوت ضجيج الموج، مشينا فيها على أقدامنا عبر ممرات كثيرة تطل على غابات تكسوها الأشجار الخضراء الباسقة، وتتقافز على أغصانها مئات أنواع الطيور النادرة المرشوقة بأجمل الألوان، بعدها مررنا بوديان كثيرة تجري فيها المياه التي يختلط خريرها بأصوات الطيور طيلة ساعات النهار، ثم تعرفنا على أجزاء من المحمية

فيها حظائر مسوّرة بسورٍ مرتفعٍ من الأسلاك الشائكة مخصصة لمئات الأنواع من الحيوانات البرية المفترسة.

وبينما كنّا نسير بين الحظائر، أعجبني منظر حظيرة خاصة بالقرود المعروفة بقدرتها على تقديم عروض مضحكة للمتفرجين وهي تقفز على أراجيح بوسعها البقاء تلهو عليها فترة طويلة من الوقت على مقربة من أشجار باسقة، لا يُلهيها عن تقديم عروضها سوى أكل الموز الذي يُقدَّم لها بين الحين والحين، تقشّره ثم تدسّه في حلوقها، ويتبارى الذكور في تقديم حصصٍ كبيرة منه للإناث.

واجتاحني شعور بالسعادة عندما وجدت حظيرة خاصة بالأرانب الجميلة بمختلف الأحجام والألوان، تنبض بطاقة كبيرة في حفر التراب والاختفاء في الحفر، والظهور ثانية عندما تمتلِئ خياشيمها برائحة الخس الذي يقدم لها بكثرة ضمن أنواع المأكولات التي تفضلها.

كانت ليانا حفيدة جمال تقف بجانبي، وتعبر عن إعجابها بالأرانب، وطلبت مني أن أشتري لها أرنبًا تربيه في منزل جدها. في الحال اشتريت لها ثلاثة من الأرانب لونها أحمر وأسود، ولون الثالث أبيضُ على مقدمة رأسه مسحة سوداء.

استدرت وابتعدت معها عن قسم الحيوانات الأليفة، ثم اتجهنا معًا إلى بحيرة واسعة مليئة بأعداد كبيرة من طيور البجع المائية بلونها الأبيض الناصع المميزة بأعناقها الطويلة، بعدها اشتريت لليانا بذورًا من بائع متجول يعشقها البجع، ورمتها لها، وأخذت تُحرك أعناقها على اتساع

دوائر واسعة متتابعة في الهواء، وسرعان ما أخذ يعلو صوتها بنبرة جميلة على اتساع المكان، معبرة عن رغبتها في أخذ المزيد من البذور التي تتلاءم مع ذوقها في تناول أشهى المأكولات.

وصل أصدقاء رحلتنا الواحد تلو الآخر، وقفوا بجانبي على طرف البحيرة واشتروا بعض البذور من بائع متجول آخر، ونثروها لطيور البجع التي أخذت تدور حول نفسها وتهزّ أجنحتها لتنال أكبر كمية منها، ولم تعد البحيرة تسعها من الفرح. تأثرتُ بمنظرها، وزاد تأثري عندما سمعت مع أصدقائي عبر مسجل صغير من النوع القديم، موسيقى سمفونية بحيرة البجع للموسيقار الروسي تشايكوفسكي، وسمعت ساجي يدندن بمقطع منها لأنه درس الطبّ في جامعة موسكو، وواظب طيلة دراسته على مشاهدة برامج مسرح «البلشوي» الشهير.

استمتع ساجي بسماع الموسيقى، وحدثنا بحماسة ظاهرة قائلًا:

«طيور البجع تثيرها الموسيقى، لاحظوا أنها توقفت عن الأكل، واشرأبت أعناقها وأخذت تدور حول نفسها في مياه البحيرة، وهي تصفق بأجنحتها».

قُلتُ:

«إنّها ترقص بحركات واضحة على إيقاع الموسيقى».

أضاف مستدركًا:

«هذا هو سرّ استمتاع العالم بسمفونية بحيرة البجع حتى الآن، لأنّها مترعة بفيض شحنات من حبّ طيور البجع لها».

بعدها صعدنا إلى أعلى نقطة في قمة السلسلة الجبلية التي تخترق أطراف المحمية، وتمكّنّا عبر منظار إلكتروني ضخم من أن نرى مساحات واسعة من بحر العرب، وأن نلامس بعيوننا عن بعد ميناء عدن وباب المندب ومنابت المرجان بألوانها الخلابة في البحر الأحمر، واتسعت دائرة الرؤيا وتشابكت مع بعض أطراف الجزيرة العربية، وكظمتُ كلّ ما يغلي في أعماقي من شوق كبير لمعرفة كلّ أرض اليمن.

قلْت هذه العبارة لساجي، وفي الحال طلب من المسؤول عن المنظار أنْ يُثبّت عدسته على مدينة المُكلا عاصمة حضرموت، نظرت في المنظار ورقّ قلبي لرؤيتها فهي من المدن القديمة في حضرموت، ولم يُسعفني الوقت لزيارتها في الأيام القليلة الماضية. لاحظت أنّ بيوتها بيضاء، ترتفع أربعة طوابق فقط، وأبديت تعجبًا عندما رأيت جبلًا عاليًا يُحيط بها، وقناة ماء ضخمة تخترقها تربطها ببحر العرب، يحلو الجلوس حولها في الأماسي الصيفية.

تهتُ في تخيلات وأنا أتجول عبر المنظار، لم يكن في وسعي التخلص منها، مزجت فيها بحّارنا وقاربه، وساجي وأوتار عوده، ثم اختلطت تخيلاتي بمشاهد كثيرة بانسجام، ممزوجة بكل ما تعرفت عليه في زياراتي حتى الآن من مآثر أثرية، بكلّ ما فيها من نقوش وجداريات وقصور قديمة.

فجأة فقدت خيط التخيلات وأفقت على صوت ساجي وهو يقول لي:

«أريدك أن تعود لنا من جديد فقد انتهى الوقت المخصص لنا للتمتع بما يجود به المنظار».

ضرب ساجي كفًا بكف، وقدم عرضًا موسعًا كطبيب عن أهمية التخيلات في حياة الإنسان، لتخفيف وطأة الواقع بكل ما فيه من منغصات، واستبداله بواقع آخر تنسجه مناول التخيلات وتملؤه بكل ما يريده الإنسان من أطايب الدنيا في واقعه الآخر.

قلت:

«كلّ ما يهمني في تخيلاتي هو أنْ أثبت أنَّ صناهجة حِمْيَر حضرموت من العرب العاربة».

فأجابني:

«هذا ليس من الخيال، إنّه من الواقع، تراكمت شواهده على امتداد آلاف السنين».

أسعدتني مقولته، وسرعان ما عبّرت له عن سعادتي لصواب فكره.

هزّ رأسه إيجابًا وقال:

«آمل أنْ يستجيب لأفكارنا أمازيغ البربر، ويعترفوا بعظمة تاريخهم اليمني القديم بدلالاته الحضارية التي يقدرها العالم أجمع».

وبينما كنت مستغرقًا بالحديث مع ساجي، سرعان ما أعلن بحارنا أننا سنرجع أدراجنا إلى منازلنا في مدينة العيضة. في الحال توجهنا نزولا نحو القارب عبر انعطافات كثيرة في الطرق التي سرنا فيها عند وصولنا المحمية. تسارعت خطانا، وعندما وصلنا إلى القارب قام ليث بفكّ

وثاقه، وبعد دقائق قليلة أخذ يطفو فوق مياه بحر العرب، ثم أسرع بحارنا في مسار العودة وقدم لنا مجموعة من شطائر الأطعمة الخفيفة المحشوة بما لذ وطاب، والتي أعدتها لنا زوجته في الصباح، كما أعدت لنا فطائر حلوة للتحلية، وقهوة الكبوس التي حفظتها في وعاءٍ يحافظ على سخونة القهوة. ارتشفنا منها فناجين عدَّة في وقت مالت فيه الشمس فجأة نحو المغيب، وأخذت أرانب ليانا تتهجى دربها بخطى قصيرة على متن القارب.

(22)

في صباح اليوم التالي أفقت على صوت ضجة يثيرها جمال وساجي، وسرعان ما علمتُ أنهما يجهزان كلّ الاحتياجات اللازمة لصيد السمك، وبعد أن ألقيت عليهما تحية الصباح أخبراني أنني سأقضي آخر يوم لي عندهم بصيد السمك في بحر العرب، في داخل ميناء نشطون الذي يتمتع بميزة مهمة لوجود مساحة واسعة في الميناء لصيد السمك، يشرف عليها مسؤول من إدارة الميناء يُطلق عليه لقب «شيخ الصيادين»، ويتمتع جمال بحصوله على رخصة دائمة تجيز له الصيد في أي وقت، من أوقات السنة.

انتشينا بارتشاف بُن الكبوس في الصباح، وأكلنا فتّة تمر تهامية، وشريحة من خبز الرشوش، مطلية بطبقة من عسل السدر اليمني الأصيل، الذي يُبعد الجوع عن آكله طيلة يوم كامل.

أجلت النظر حولي وتساءلت:

«أين الأحفاد؟».

فأجابني جدّهم:

«لن يرافقونا اليوم لأنّهم يداعبون الأرانب في حديقة المنزل منذ انبثاق الفجر».

حملنا ما يلزمنا من مستلزمات الصيد واتجهنا نحو القارب، ثم التقينا بثلاثة أصدقاء هم: ساجي وهمام وجروان، وفي لحظة التقينا بمجموعة من السياح العرب من بلدان المغرب العربي الكبير، يتقنون التحدث

بلهجة المهرة، علمنا منهم أنهم تعودوا على زيارة مأرب وحضرموت والمهرة، بعد اقتناعهم بأن الأمازيغ ينتمون إلى قبائل حِمْيَر حضرموت العربية، وبينما كنا نتجاذب معهم أطراف الحديث، اهتز شارب أحدهم واسمه ثابت وهو يؤكد أنهم من العرب العاربة، أعفاه جمال من تقديم البراهين التي استقوها من النقوش الأثرية والمخطوطات وكتبٍ حديثة نشرها عدد كبير من البحاثة المعاصرين من الأمازيغ، ممن يفتخرون بأصولهم الحِمْيَرية العربية.

وفي سياق هذا اللقاء، امتدحهم جمال قائلًا:

«نحن أبناء أصل واحد، وأتمنى أنْ أراكم دومًا في مدينتنا على ساحل بحر العرب».

بعدها أضاف:

«سنقضي اليوم في صيد السمك، ويتسع قاربي إلى إضافة ثلاثة أشخاص منكم، يمكنهم ممارسة الصيد معنا طيلة اليوم».

فأجاب المشرف على برنامجهم السياحي واسمه وليد:

«سأقترح عليك أسماء ثلاثة أشخاص، من المشاهير في صيد السمك، وقد مارسته معهم قبل أيام قليلة في جزر أرخبيل حنيش اليمنية جنوب البحر الأحمر».

تطلع المشرف في وجوه زملائه وطلب من ثلاثة منهم الصعود إلى القارب، وهم: «هاني»، جزائريٌّ من مدينة تيزي أوزو التي تعتبر مركز

التظـاهرات الثقافيـة الأمازيغيـة، واسـم الشـخص الثـاني «غـوث» مـن موريتانيا، واسم الثالث «ثابت» من مدينة مراكش المغربية.

بعدها صعدنا معهم تباعًا إلى متن القارب، بعد أن وضعنا تجهيزات الصيد في جزئه الأسفل حيث توجد ثلاجة لحفظ الأغذية، ووعاء كبير لحفظ ثمار الصيد من السمك، ووعاء كبير من المياه الباردة المخصصة للشرب في رحلات البحر الطويلة.

بقي ساجي على الشاطئ لكي يقوم مقام ليث في فكّ وثاق القارب، فكّه ثم لحقَنا بالصعود إلى حيث نجلس، وجلس معنا على مقاعد مريحة للرحلات البحرية، خيم السكوت علينا بعض الوقت، وبعد أن طاف القارب فوق أمواج بحر العرب، لامست ريشة ساجي أوتار عوده وغنى الجميع معه أغنية «المهرة حوت كلّ زين». ولاحظت انفعال ضيوفنا الثلاثة، رمقتهم بطرف عيني ووجدتهم يغنون باللهجة المهرية بخيال جامح يعودون به إلى ماضي أجدادهم.

خيم السكوت ثانية وسمعتُ الثلاثة يغنون أغنية أمازيغية، شعرت أنهم يردّدونها باللهجة المهرية، لتشابهها الكبير مع لهجة الأمازيغ المحكية في المغرب العربي الكبير.

أبرقت عينا غوث الموريتاني فجأة، وسرعان ما قال بكلمات بالغة الرقة:

«نحن في مورتانيا نفتخر بأننا من نسل حِمْيَر حضرموت، نعيش في إطار منظومة قيم وطنية، تمكنّا بها من بناء أركان مجتمع مميز لا تعكر صفوه أي نعرات عصبية، تشكك بانتمائنا إلى أصولنا الحِمْيَرية العربية».

جرى كلُّ شيء على ما يرام في خط سير قاربنا، وكان جمالٌ يشدّ على مقود قاربه وابتسامة واسعة ترتسم على وجهه، وفي لحظة أعلن قائلًا:

«أيُّها الحِمْيَريون نحن الآن على مقربة من ميناء نشطون، سأبطّئ الآن سرعة القارب للدخول إلى الميناء».

اتجه بنا نحو اليمين، ثم توقف في صفّ من القوارب التي تنتظر الدخول، وبعد فترة قصيرة سمعنا صوت صافرة عاليًا يُجيز لنا الدخول، ابتسم جمال واتجه بقاربه إلى داخل الميناء، سار فيه ببطء حتى وصل إلى جزء الميناء المخصص لصيد السمك، ثم أوقف قاربه في مرسى فيه عدة قوارب للصيد. نظرت إلى ساجي من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه وهو يقفز بسرعة من القارب ويثبت وثاقه بحلقة حديدية على الطرف الغربي من المرسى.

بعدها نزلنا من القارب وأخذوا كلُّهم ما يحتاجونه من شباك الصيد والصنانير والطُعوم اللازمة. فردوها أمامهم على طرف المرسى، ثم حمل كلّ منّا ما يخصه منها واتجهنا نحو موقف خاص على البحر لممارسة الصيد.

(23)

كانت الأجواء صافية صالحة للصيد، وأخذَت الصنانيرُ بالاهتزاز من شدة تأثيرها على حلوق السمك، كما كانت تتمايل الشباك يمنةً ويسرةً لثقل الأسماك التي اشتبكت بها، وأصبحت سجينة بين خيوطها. وقد تفاجأت لكميات الأسماك الضخمة التي تراكمت أمامنا بأنواعها المختلفة وكان أغلبها من الحجم الكبير، وكان بينها سمكة كبيرة صادها بصنارته الضخمة هاني الجزائري، واعتبرت من النوع النادر في بحر العرب لم يصد مثلها جمال وأصدقاؤه من قبل، حتى إنَّ الجميع عبروا عن جهلهم باسمها.

وعندما حاذانا صياد خبير في أسماء السمك، تدخل في وضع معرفته تحت تصرفنا، وأكد لنا أن سمكتنا الضخمة من نوع الجحش.

ضحكنا بصوتٍ عالٍ، وبيَّن أنّه على معرفة بهذا الاسم، لكن سمك الجحش المتوفر في تلك المنطقة ليس بهذا الحجم.

وفي سياق افتخار هاني الجزائري بسمكته المميزة، شبهها بالسمكة التي ألف بسببها الروائي الأمريكي أرنست همنجواي روايته «الشيخ والبحر»، وشبه نفسه بالصياد الكوبي العجوز «سانتياغو» بطل الرواية، الذي صاد سمكة ضخمة في خليج كوبا وربطها بقاربه في رحلة عودته إلى كوخه، وبسبب الدم النازف منها، قضمتها أسماك القرش ولم تترك له منها سوى الذيل والرأس وهيكلها العظمي، ولم يذق قضمة صغيرة منها.

وجهت نظري للجميع وعلقت قائلًا:

«ترمز حكاية سمكة سانتياغو إلى الصراع الذي يدور ما بين الإنسان والحياة، ومدى قدرة الإنسان على تحمل هذا الصراع الذي يواجهه طيلة أيام عُمره».

ابتسم هاني ابتسامة عريضة ظهرت على اتساع وجهه، وبينما كنت أكيل المديح للصيد الوفير الذي حققناه، قال:

«دعونا الآن من الحديث عن الصيد، وعلينا الاستعداد بهمة عالية لتجهيز السمكة الضخمة للشواء، لوقف الصراع الدائر ما بين بطوننا والجوع».

انتقلنا إلى ركن مجهز بكل ما يلزم للشواء، بما في ذلك وجود تنانير طينية من النوع الكبير مثبتة على منصات خاصة بها، تستخدم من قبل الصيادين، مقابل رسوم ضئيلة تدفع للجهة المسؤولة عن ركن صيد الأسماك.

سرعان ما بدأت حفلة الشواء، وأثبت صديقنا هاني أنه على دراية بشواء الأسماك، استحضر كلّ معرفته الطويلة وهيأ لنا غداء من أشهى ما أكلته من وجبات الأسماك، خاصة أن جمالًا قدم لنا كمية لا بأس بها من خبز الملوح اليمني المسطح.

حدقت في وجه هاني واتسعت عيناي، ثم سألته:

هل لدى الأمازيغ مثل هذا الخبز الشهي؟

فأجابني:

«لدينا في الجزائر والمغرب الخبز نفسه بتركيبته وشكله واسمه اليمني، ولدينا أيضًا خبز اللحوح اليمني الرقيق ويسمى البرغير في الجزائر والمغرب، ولدينا مأكولات كثيرة يمنية باسمها اليمني».

أحسست بأن حديث هاني يدخل في منطقة مفرحة محملة ببراهين عمليةعن أصول الأمازيغ اليمنية العربية.

ساد صمت عميق، بعدها انتهينا من تناول الغداء، وقدم لنا مضيفنا جمال قهوة الكبوس اليمنية التي أحضرها جاهزة من منزله، ارتشفنا منها عدة فناجينٍ، في وقت كان فيه ساجي يُحرّك ريشته على أوتار عوده، ويعزف مقطوعات موسيقية من بلاد المغرب الكبير، ثم غنّى أغنية عصرية من أغاني الراب الجزائرية ذات الإيقاع السريع.

أكد الجميع على التشابه ما بين الموسيقى التي يتذوّقها الأمازيغ وموسيقى المهرة، بعدها غنى الجميع أغنية «سيدي عبدالقادر» الشهيرة في كل الدول العربية، وفي النهاية غنى ساجي أغنية فيروز المعروفة «زوروني كل سنة مرة»، وعلق جمال بصوته الجهوري:

«أريدكم أن تزوروني في كل سنة مرات ومرات».

بعدها جمعنا مستلزمات الصيد، وأعدناها إلى مكانها في أسفل القارب، ثم قفلنا راجعين إلى الغيضة، كان قاربنا يسابق الريح، وتمكنّا من الوصول بنصف الوقت المحدد للعودة.

عند وصولنا كانت الساعة الرابعة مساءً، توقفنا بعض الوقت على الشاطئ، وقدمنا الشكر لبحارنا جمال على الوقت الجميل الذي قضيناه

معه في رحلة صيد السمك، ثم دعانا ساجي لقضاء سهرة في منزله تبدأ في تمام الساعة الثامنة مساءً.

قبلنا دعوته، شريطة أن يقدم لنا عصير الليمون وعصير التمر فقط، بعدها أعطى عنوان منزله لثابت وهاني وغوث، ثم افترقنا بعد أن اتفقنا على اللقاء ثانية بعد فترة قصيرة من الوقت.

***

التقينا في الوقت المتفق عليه في منزل ساجي، وبينما كان مضيفنا يكيل المديح لوصولنا قبل الوقت المحدد بعشر دقائق، لفت نظري وجود بيانو في قاعة الضيوف. بعد قليل أدار ساجي مفاتيحه وعزف مقطوعة للموسيقار برامس، وبعد انتهائه من العزف ذكَّرنا ثابت برواية عنوانها «هل تحبين برامس»، كتبتها الروائية الفرنسية فرانسوا ساغان، أومأ برأسه مبينًا أنه يعرف الرواية، ثم واصل تحريك أصابعه على البيانو من جديد، واستمتع كثيرًا بعزف أغنية زهرة «المدائن على البيانو».

وبعد انتهائه من العزف، قال ثابت بأعلى صوته:

«قُدسُ يا مدينة الأنبياء، أطفالك الصغار يُصلبون صباحًا ومساءً».

بعدها احتضن ساجي عوده ثانية ولامست ريشته أوتاره، وعزف عدة مقطوعات موسيقية من تأليفه تتلاءَم مع ملاحم أجداده من حِمْيَر حضرموت، طرب لها ثابث وهاني وغوث، وأخذوا يرقصون على اتساع صالة الجلوس ويدندنون بكلمات من اللهجة المهرية.

رافقهم الرقص جمال، حدجهم بنظره، ثم ضمهم وأسند رأسه إلى أكتافهم، وقال لهم:

«أنتم إخوتي، الدم الحِمْيَري نفسه يجري في عروقنا، وأجدادنا من اليمن السعيد».

كان أصلهم اليمني يبدو لهم مُسلَّمًا به لا يحتاجون إلى تأكيد من أحد، لكن ثابت الجزائري رمقنا طويلًا وقال:

«لقد حلَّلت الحمض النووي المسؤول الأول عن تحديد الروابط الوراثية بين الناس، وبيَّن التحليل أنني أنتسب إلى الحِمْيَريين».

ابتسم الجميع لسماع هذا الخبر.

وتفرَّس فيه همام قائلًا:

«قد تكون الوريث الأول لجدنا الأكبر سيف بن ذي يزن».

فأجابه ثابت:

«أعتبر نفسي كثيرًا في تخيلاتي أنني وريثه، على رأس جيش كبير أخوض به جبهات حربية في حرب اليمن الضروس ضد جيش الأحباش».

بلع ريقه ثم أضاف:

«لكوني باحثًا أركولوجيًّا أعيش في مدينة تيزي أوزو الجزائرية فإني أتمتع بقدرة البحث الميداني عن النقوش التراثية وآثار القصور والأبنية القديمة والحصون والقلاع، وتأكدت من نتائج أبحاثي أن كل سكان الجزائر من الأمازيغ هم من أصلٍ واحدٍ، أصل حِمْيَر حضرموت».

تتابعت التعليقات واتفق الجميع على أنّ دولة المرابطين قامت على العصبية الصنهاجيّة بعد توحّد قبائل عديدة منهم على أساس أصلهم الحِمْيَري، وأصبحت قوة على امتداد مساحات واسعة في المغرب العربي الكبير، وقام أشهر أمرائِها «يوسف بن تاشفين» بتأسيس مدينة مراكش واتخذها عاصمة له، ودخل الأندلس وأيدته قبائل الصناهجة في غرناطة على أساس عصبي، لكونهم من أصلٍ واحد.

طالت سهرتنا في بيت ساجي، وسرعان ما انتصف الليل ولم يغفل جمال عن إلقاء بيانه الأخير بمناسبة عودتي إلى الكويت في الغد، طلب من الجميع الحضور لتوديعي في مطار الغيضة الدولي، في تمام الساعة الثانية من بعد ظهر الغد.

وبينما كنت أكيل المديح للأيام الجميلة التي قضيتها معهم، وخاصة رحلة صيد السمك في قارب جمال، بدأ الجميع بالخروج تباعًا، في وقت كانت فيه السماء صافية مرشوقة بالأنوار، ودرب التبانة تهم بالبدء بالدوران حول نفسها في بيادر النجوم.

(24)

نمت ليلتي الأخيرة بالغيضة في منزل جمال، وشغلت بالي كثيرًا في الصباح بتفاصيل السفر، جلست في صالة الطعام قبالة مضيفي، ولم ننبس ببنت شفة، حدقت بوجهه، وتهت في ظلال حزن شديد تغمره، حدقت فيه أكثر فأكثر، وتمتمت بكلمات متقطعة، أردت بها أن أخفّف من حزني على فراقه:

«إنّها الحياة يا صديقي، تدور أيامها بحركة دائمة، في حلقات متعاقبة من اللقاء والفراق».

عيناه كانتا تبرقان بالحزن، رمقني طويلًا كأنه يراني لأول مرة، وأدرك أنني على درجة عالية من الحزن لفراقه، ثم قال:

«أنت لست أقل حزنا مني، وعلينا تقبل الحياة على علّاتها».

بعد دقائق معدودة، وصل ساجي مع عوده، ومعه همام وجروان، ثم دخلنا صالة الطعام، ووصل الإفطار مكونًا من ثلاثة أطباق، مكدسة بمثلوث فول وبيض بالفرن ورطب بالعسل، وبجانبها خبز رشوش، وقارورة كبيرة من عصير الليمون، تناولنا خمستنا إفطارنا على مضض، وانبرى جمال للكلام، فدعانا إلى صالة الجلوس ثانية، ولامست ريشة ساجي أوتار عوده الحزين.

حظيت بسماع أغانٍ كثيرة بلهجتهم المحلية، وسماع مقطوعات موسيقية قديمة، أعاد ساجي أنغامها معتمدًا على ترانيم تتلاءم مع روح العصر الذي نعيشه.

وعندما حان وقت الذهاب إلى المطار، ودعت زوجة جمال وأحفاده، واتجهنا خمستنا في سيارته إلى المطار، وعندما وصلنا وجدت فيه بانتظارنا كل من تعرفت عليهم في الغيضة وسيئون، تجاذبت معهم أطراف الحديث، وعندما حان وقت الوداع، صافحتهم وتشابكت الأيدي واهتزت بحرارة زائدة.

بعدها دخلت قاعة المغادرين، وأنهيت إجراءات المغادرة، ثم ألقيت نظرة على أصدقائي من بعيد ولوحت لهم بيدي مودعًا، وبعد فترة قصيرة صعدت إلى الطائرة، وجلست في المقعد المخصص لي بجانب الشباك، ثم بدأت الطائرة تدرج مسرعة على مدرج المطار، وما هي إلا لحظات حتى اتجهت صعودا إلى أعلى فوق وسائد الغيوم.

استذكرت في الطائرة بدفق عاطفي مؤثر، كل جزيئات زيارتي لليمن السعيد، ولاحظت من شباك الطائرة وجوه أصدقائي يسابقون الغيوم في الفضاء، وتصل إلى مسمعي أصواتهم، وأرى صديقي جمال يجلس على غيمة عالية يهز سبابته ويقول لي: «عُد إلينا ثانية يا صديقي».

وكِدت أجن عندما رأيت ساجي يسابق الغيوم أيضًا، ويعزف على أوتار عوده أغنية يتلو كلماتها باللغة الحِمْيَرية.

استمرّ بصري بالتنقل بين الغيوم واستمتعت برؤية كلّ أصدقائي، ومشاهدة غيمة كبيرة عليها عرش مأرب وبجانبه مشاهير ممالك اليمن القدماء من أيام سبأ وحضرموت وحِمْيَر.

أفقت من تخيلاتي عن الغيوم على صوت المضيفة وهي تعلن عن قرب هبوط الطائرة في مطار الكويت، شعرت بعد لحظات باهتزاز الطائرة عند الهبوط، وسمعت شهقات بكائية لأطفال لاشتداد الضغط على آذانهم، بعدها هبطت الطائرة وسمعت صرير عجلاتها عندما لامست الأرض، أفزعني صوتها وانتزعني من فرح لحظة الوصول، ثم عدت إلى وضعي الطبيعي عندما تناولت حقيبتي وخرجت من باب قاعة القادمين، ونقلتني سيارة أجرة إلى منزلي في السالمية.

(25)

في مساء اليوم التالي التقيت بأصدقائي صارم وضاري وداغر في مقهى البركة، وجدت متعة بالحديث لهم عن زيارتي لعدد من المدن اليمنية، وإرجاع دولاب الزمان إلى الوراء، وإزالة كثبان الرمال عن آلاف السنين الماضية.

استرخى صارم في جلسته وسألني:

«هل قام والدي بالواجب كما توقعته منه قبل السفر؟».

فأجبته:

«قام بالواجب أكثر مما توقعت، كان معي طول الوقت مع أصدقائه، وأشعرني بمتعة الكرم اليمني الأصيل».

استغرب أصدقائي عندما بيّنت لهم تفاصيل المعلومات التي زُوّدت بها، ثم هزَّ صارم رأسه مبينًا افتخاره بما قدمه والده وأصدقاؤه لي أثناء زيارتي لهم.

التقطتُ طرف الحديث ثانية وحدَّثتهم عن رحلة صيد السمك، وصيد أضخم سمكة رأيتها في حياتي، أبحرت في أعماق بحر العرب وأنا أحدّثهم عنها، وفي نهاية جلستنا قدمت لهم هدية جمال لهم من عسل السدر اليمني الأصيل، ومن بن الكبوس اليمني.

اقترب مني صارم وتساءل:

«هل تعرفت على ساجي وعوده؟».

أومأت برأسي إيجابًا، وأضَفت قائلًا:

«سمعت نبض أوتاره وأغانِيَ كثيرة أتقن غناءَها، خاصة أغنية المهرة حوت كل زين».

أخذ أصدقائي يُغنون الأغنية نفسها بصوت خفيض، وأصغيت لهم بانتباه كبير، ثم قال صارم:

«ساجي فنان كبير ونطاسي مشهور، يقدر خصائله الحميدة كل من يعرفه من المهرة».

اتضح لي مما سمعته عن ساجي بأنه من خيرة الناس، تتشعَّب أعماله في مجال الطب والموسيقى والغناء وصيد السمك.

وما هي إلا بضع دقائق حتى لاحظت ضاري ينظر لي بدهشة بسبب المعلومات التي حصلت عليها حتى الآن، ومدح كلّ ما فعلته وقال متسائلًا:

ماذا تريد أن تفعل الآن؟

فأجبته:

«أريد أنْ أزور مدينة غرناطة الأندلسية عسى أنْ أجد فيها أحد الصناهجة من أحفاد السلاطين القدماء».

تساءل صارم بتعجبٍ واضح:

«لماذا غرناطة؟».

أجبته:

لأنهم حكموها، كما أنهم بنوا قصر الحمراء جوهرة الهندسة المعمارية على مدى كلّ العصور».

بعدها أفضت بالحديث عن أهمية غرناطة في تاريخ الأندلس، وبيّنت لأصدقائي أنني زرتها عشرات المرات من قبل، ونمت فيها في حي البيازين القديم.

سكتنا لحظة، واستمر بصري بالتنقل بين بنايات حي السالمية، ثم أخذ داغر يتحدث بما يدور بخلده من أفكار عن المعلومات المتبقية التي أحتاجها، وبيّن بصوت واضح أنني جمعت كلّ المعلومات التي أحتاج إليها من مصادرها الأثرية في اليمن عن أصول الصناهجة وقبائل حِمْيَر حضرموت العربية، وعليّ أن أغلق دائرة المعلومات المطلوبة في الأندلس مقرّ القبائل الحِمْيَرية بعد هجرتها واستقرارها في أمكنةٍ كثيرة خارج اليمن.

ثم أضاف قائلًا:

«عليك أن تسارع إلى الكشف عن دورهم في الحكم واعتلاء العروش، وتلامس بصماتهم الحضارية في غرناطة، وتعرّف الناس بمظاهرها المادية التي ما زالت ماثلة للعيان حتى اليوم».

أومأت برأسي موافقًا على ما قاله صديقي، ثم بدأت بالحديث عن دعوة تلقيتها للمشاركة في مهرجان للشعر العربي ينظمه قسم اللغة العربية، في مدرسة اللغات المعروفة في مدينة المرية، لتقديم قصيدتين من

مجموعتي الشعرية الجديدة التي أصدرتها بعنوان «حيفا وقصائد أخرى»، وسأطلب من عملي إجازة مدتها أسبوعٌ للمشاركة في المهرجان الشعري.

تساءل صارم وهو يغمره الفرح لقراري:

«أين تقع مدينة المرية؟».

فأجبته بإيجاز:

«إنّها في جنوب شرق إسبانيا على البحر الأبيض المتوسط، على مقربة من مدينة ملقا وليست بعيدة عن غرناطة، كانت في الماضي من أهم موانئ الأندلس».

وقال ضاري:

«يوجد خط جوي ما بين الكويت وملقا، ولأن أخي يعمل في مجال السياحة والسفر يمكنني حجز تذكرة لك على هذا الخط بالأسعار المخفضة».

وافقت على اقتراحه دون تردّد، وفي اليوم التالي بدأت بتجهيز نفسي للسفر، وكنت واثقًا من أنّ زيارتي للمرية ستكون مثمرة كزيارتي لبعض مدن اليمن في الآونة الأخيرة.

بعد أيام قليلة كنت في مطار الكويت، وقفتُ في قاعة المغادرين، وتفاجأت لقلة عدد الركاب المسافرين إلى ملقا، بعدها ودعت أصدقائي، وصعدت إلى الطائرة، ثم جلست في الكرسي المخصّص لي في الطائرة، ونمت طيلة الرحلة، ثم أفقت عندما هبطت الطائرة في مطار ملقا.

اتجهت بعد خروجي من المطار، إلى محطة سكة حديد ملقا، وصعدت إلى القطار المتجه إلى مدينة المرية، وعند وصولها واصلت السفر بسيارة أجرة إلى قرية القيعان الصغيرة التي تقع بالقرب من المرية لقضاء ثلاثة أيام فيها، يوم قبل انعقاد المهرجان الشعري، ويومين بعد انعقاده

أقمت بالقرية في بيت قديم حجزته من قبل، على سفح جبلٍ عالٍ يؤجَّر لفترات قصيرة لزوار منطقة المرية.

(26)

التقيت مساء وصولي في حديقة البيت بثلاثة أشخاص، هم:

مدير قسم اللغة العربية في مدرسة اللغات في مدينة المرية، وقد قدم لي نفسه باسم أنطونيو مارتينيث كاستر، وقدم لي شخصين كانا برفقته يتقنان الحديث باللغة العربية، هما: إدواردو علي جارسيا، وأغوسطين الذي قدَّمه باسمه الأول فقط، وقد اهتممت بوجوده كثيرًا لأنه كان يحمل قيثارًا، يضعه بعناية فوق أعلى كتفه.

بدأنا من فورنا بتجهيز كلّ ما يلزم لإعداد وجبة العشاء، ملأنا برميلًا كبيرًا بالجمر الأحمر، وبعدها وضعنا شرائحَ من اللحم فوقها، مكدسة في شبكة فولاذية كبيرة خاصة للشواء.

تناولنا عشاءنا، ودار الحديث بيننا باللغة العربية على ضوء النار المشتعلة، بعدها خيَّم الصمت علينا، وبدأ أغوسطين بالعزف على قيثاره مقطوعات موسيقية إسبانية، ثم غنى أغنية، كرر فيها كلمة أولي أولي مرات عدّة، وكان رنين كلماتها يشبه رنين كلمات قصائد الكانتي فوندو.

حدثتهم عن صديقي ساجي، اليمني الطبيب الماهر الذي يتقن الغناء والعزف على أوتار عوده الزريابي.

سأل أنطونيو:

«هل أصله من قُرطبة؟».

فأجبته:

«إنه من نسل حِمْيَر حضرموت يعيش في منطقة المهرة اليمنية التي يتحدث أهلها لهجة مشتقة من اللغة الحِمْيَرية القديمة».

سأل ثانية:

«هل يتحدث غيرهم بلغتهم القديمة؟».

فأجبته:

«أجل، أهل المهرة في اليمن وفي عدة دول عربية مجاورة لليمن، كما يُتقن الحديث بلهجتهم الأمازيغ، لأنهم ينحدرون من حِمْيَر حضرموت، والتقيت بثلاثة منهم من الجزائر والمغرب وموريتانيا، وسمعتهم يتحدثون ويغنون بلهجة المهرة القديمة».

وعلى إيقاع حديثي قال أنطونيو بحماسة شديدة:

«متى زرتهم؟».

قُلتُ:

«قبل أسبوعين، وبقيت في اليمن عشرة أيام كانت كافية لكي أنقش في ذاكرتي آلاف المشاهد عن أصول قبائل الزمن القديم، وساعدني على اكتشافها صداقتي الراسخة لعدد من اليمنيين».

وفي لحظةٍ التمعت عيناهُ وسألني مستوضحًا:

«هل سبب زيارتك لليمن هي رغبتك في التعرف على لهجة المهرة القديمة؟».

تحمست لسؤاله وأجبته:

«كنت أريد التعرف على أصول قبائل العرب العاربة المنقوشة في أعماق التاريخ، بحثت عنهم عند عرش بلقيس وسد مأرب وفي قصور قديمة وبنايات تعتبر أول ناطحات سحاب في العالم».

وهنا وجدته يسألني:

«ماذا اكتشفت؟».

وبينما كانت ذكرياتي الحديثة عن زيارتي لليمن تدور في رأسي، قُلتُ له:

«وجدتُ أنّ أجداد أمي التي تُسمّى عائلتها باسم آل سيف، جدهم الأول هو سيف بن ذي يزن الملك الحِمْيَري الشهير، كما وجدتُ في الأردن وفلسطين مئات العائلات التي تدل أسماؤُها على أصلها الحِمْيَري».

ثم استدركت قائلًا:

«كما وجدتُ أن قبائل الصناهجة من العرب العاربة، هاجروا من حضرموت عند دمار سدّ مأرب، وأن أصل الأمازيغ كلّهم من العرب العاربة أيضًا وينحدرون من اليمن».

رمقني أنطونيو بطرف عينه، وتساءل:

«هل مصدر كلامك الأساطير القديمة، أم بقايا الآثار المادية التي أبقاها لنا القدماء؟».

فأجبته:

«مصدري هو الآثار التي أبقاها لنا القدماء، خاصة نقوش خط المسند، ومعنى ما عليها من معلومات باللغة العربية الفصحى».

واصلنا جلستنا وكانت بقايا نار الجمر التي استخدمناها للعشاء، تلمع على اتساع المكان، وسرعان ما قلت مستدركًا لجلسائي:

«تخيّلت صناهجة حِمْيَر حضرموت عندما زرت مدينة مأرب، ووجدت متعة في تجميع شتات أفكاري عنهم، وتخيلت قادتهم وهم يستمتعون بالجلوس تحت ظلال عرش مأرب على مقربة من السدّ القديم».

ثم أضفت: تخيلتهم يستلقون على ظهورهم ويتأملون مياه السد وهي تجري مخترقة مصباته، وتتلوى حول أشجار اللبان وسهول وادي وصحراء حضرموت.

ثمَّ بيّنت لجلسائي في تواصل سردي، أن الأيام التي زرت خلالها اليمن، أنستني انكسارات بلدي التي أعيش في مهجري بعيدًا عنها، واجتاحني حلمٌ كبير بأن يظهر في عالم اليوم أحد أحفاد سيف بن ذي يزن ليفك قيود أسر أهلي، كما فك قيود أهل اليمن عندما انتصر على أعدائه الأحباش، وتمكن من لم شعث القبائل الحِمْيَرية حوله، وبعدها اعتلى عرش المجد في قصر غُمدان الذي تطل بقايا آثاره في الزمن الحالي على المباني الأثرية في صنعاء القديمة.

شعرتُ أنَّ أمي تسمعني في قبرها وتهزُّ ضفائر جدائلها تقديرًا لجدها الأكبر، سيف بن ذي يزن، تتابع كلّ ما أقوله عنه، وهي سافرة الوجه

وترتدي ثوبًا منسوجًا على الطريقة التلحمية، خيوطه موشاة بالقصب، وعلى طرفيه حزمتين من العروق الممزوجة بالحرير، هكذا تخيلت أمي في تلك الأمسية، وهي فرحة بما أقوله لأصدقائي عن ذكريات زيارتي الأخيرة لليمن.

وفي إطار تخيلاتي عنها، لاحظت حركة هزّت بها رأسها، عرفت من تلك الحركة، أنّها راضية عن أقوالي وأفعالي.

استمتعت بما ينعم به التخيل، واجتاحني إحساس بالراحة.

(27)

خيم السكوت بعض الوقت، وفي لحظة سألني أنطونيو:

«أين أنت الآن؟ هل أنت معنا أم أنك في قصر غُمدان؟».

فأجبته:

«أنا معكم ولست معكم في الوقت نفسه، أخذتني تخيلاتي بعيدًا عنكم، قربتني من أمي، وتعطل نبض قلبي بعض الوقت وأنا بقربها، سمعتها تؤكّد لي بصوت خافت حقيقة قرابتها مع جدها الأكبر سيف بن ذي يزن، وبيّنت لي، كما بينت بكلمات واضحة مئات المرات في صغري أنَّ أسرتها تُكنى باسمه، وسَمعتُ جدي والدها يُذكرني دومًا أنا وبقية أحفاده بأصول أسرته الحِمْيَرية، وأنهض واثبًا كلما أسمعه يُذكرني بهذه الحقيقة، وأتباهى بأصل أسرة أمي بين أقراني.

نضحت يداي بالعرق وأنا أحرك جذعي على المقعد الذي أجلس عليه، وبعد سماعي زفرة من أنطونيو سألني:

«هل تشعر بالحزن وأنت تردّد حكاياك عن الأموات؟».

قلتُ:

«الموت هو الوجه الآخر للحياة لا مفرّ منه، أجل لا نحبّه لكنّنا لا بدّ من شرب كأسه حتى لو عشنا ألف عام، والحديث عن الأموات يعجبني خاصة عند تذكُّر أقوالهم عن أصول أسرهم الممهورة بنقوش من الزمن القديم».

نظرت حولي ووجدت أن النار المشتعلة تزداد توهجًا، بعد أن أضاف عليها أوغسطين كمية كبيرة من الحطب الجاف، ووجدته يرمقني بعينيه، وانبرى للكلام، وقال متسائلًا:

«لماذا أحزنتنا بالحديث عن الموت؟».

قُلتُ:

«لأنّ زيارتي لليمن كانت عن الأموات، بحثت عنهم في مواقع أثرية كثيرة تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد، وقد زرت معابدهم وقبورهم ولامست عظامهم وقرأت ملخصات ما كتبه التاريخ عنهم وعن حروبهم وعن اللحظات الأخيرة في حياتهم عندما فارقوا الحياة الدنيا».

ثم قال ثانية بكلمات مغلفة باللطف:

«أنت على حقٍّ؛ ليس بإمكاننا العيش بدون معرفة الماضي، أُحيّي فيك بحثك الدائم عن الجذور، وأصول قبائل الصناهجة بشكل خاص، وأصول قبائل حِمْيَر حضرموت هنا وهناك وفي كل مكان».

وعندما أنهى كلامه بينتُ له أنَّ هدف بحثي عن الذين مروا في الحياة من قبلنا، هو معرفة أصول الأحياء منا، وعلى وجه الخصوص معرفة الذات والآخر. أضفتُ وعيناي تبرقان على لهيب النار المشتعلة، أنني تعرفت على نفسي أكثر فأكثر عندما نمت في إحدى الليالي مع صديقي جمال، في قرية ترابة الحضرمية على مقربة من آثار قارة الصناهجة التي تابعت إشعاعات القدماء الأموات من أهلها طيلة الليل.

تـذكرت في تلـك اللحظـة جلوسـي سـاعات طويلـة في مـأرب مسـتندًا بظهري إلى عرش بلقيس، تأملت ماضيها وأساطيرها التي اعتَبرت حياتها سلسـلة مـن الأحـداث المثيـرة، واتُّخـذ قبرهـا مقامًـا عـبرت عليـه آلاف السنين.

ذكرت لأصدقائي ما شعرت به عند عرشها، على مقربة من بـاب السـد العظيم، وقلت مبتسمًا:

«كثيـرًا مـا كانـت تعـاودني في ذلـك الوقـت تـأملاتي بماضـي البشـر، وأستجيب لرأي يعجبني، مـؤداه أنّ مـآثر الميـت تبقـى مئـات القـرون بعـد موته، وتبقى أنصابه القديمة مزارًا للأحياء».

التفت إليّ أنطونيو بغتة وبيَّن استغرابه مـن خلـط نتـائج زيـارتي لليـمن بـأطر فلسـفية افتراضـية تكـاد تكـون حاسـمة في مجـال المـوت والحيـاة، وإعادة عقارب الساعة إلى الوراء للتعرف على أجدادنا الذين رحلـوا عـن دنيانا قبل مئات السنين.

قُلتُ ردًا على ملاحظته بأن الفلسفة التي تعنيني لا تـدور حـول الحيـاة والموت، بل حول الإنسان وإعلاء قيمته في الماضي والحاضر، ولا أضيع وقتي بالرجوع إلى المصادر الفلسفية المرجعية، وإنمـا أهـتم بـالنبش عـن بقايا الآثار المادية لأجدادنا التي بقيت دلالاتها بعدهم تعبّر عـن أصـولهم ومساهمتهم في الحضـارة الإنسـانية التي مـا زالـت ماثلـة علـى مـرّ السـنين حتى الآن.

وبينما كنت أجمع شتات أفكاري تدخَّل أنطونيو متسائلًا:

«وهل وجدت دلالات مادية يُعتدُّ بها تؤكد حقيقة كون قبائل الصناهجة من العرب العاربة».

أومأت برأسي موافقًا على الكلام الذي ردّده، وتساءلت مستوضحًا: «ماذا يَعني لك الصناهجة وأصولهم العربية؟».

وضع يده اليمنى على طرف جبهته، وبقي في مكانه دون كلام لفترة من الوقت، ثم حرك يده ببطء كأنه كان ينبش في ذاكرته عن إجابة وافية لسؤالي.

نظر إليّ بنظرات مفعمة بالودّ، لكنه لم يجب عن سؤالي ولم يبيّن علاقته بهذه الشريحة من القبائل العربية المنتشرة في المغرب العربي الكبير وفي ديار الأندلس، وكدت أجزم من نظراته بأنه منهم، وينتمي إلى أصولهم العربية.

(28)

خيّم الصمت علينا، وسألني أنطونيو ثانية على وميض النار المشتعلة، عن الشعر الذي أنظمه، ثم ضحك بصوت عالٍ واهتزَّ بشدة حتى خشيت أن ينقلب على ظهره من شدة الضحك، ثم استطرد قائلًا:

«رغم أنني سأتحدث عن شعرك في مهرجان الشعر إلا أنني لم أقرأ بيتًا واحدًا من شعرك».

اتجهت في الحال لغرفة النوم المخصصة لي، وتناولت من حقيبتي ثلاث نسخ من مجموعتي الشعرية الموسومة «حيفا وقصائد أخرى»، وسلمتها لأنطونيو ورفيقيه. في الحال أخذ يُنقّب في صفحات نسخته صفحة تلو صفحة، وأحصى الكلمات التي تكرر اسم حيفا فيها، ورسم ابتسامة على اتساع فمه وقال بنبرة فكهة:

«أنت مجنون حيفا يا صديقي، سنعود لها معًا وإن طال الزمن».

بادرته متسائلًا باهتمام زائد:

«وأنت مجنون أي مدينة في إسبانية، المرية التي تعيش وتعمل فيها أم مدريد «مجريط» بالعربية التي هي مسقط رأسك وعشت فيها مرحلة الدراسة والتكوين؟».

فأجابني دون تردّد:

«أنا مجنون غرناطة وسرعان ما وصفها بجوهرة مدن الأندلس على مدى الأيام».

زفرت بصوت مسموع، وعلمت منه دون إيضاح أنّ عشقه لغرناطة لا حدّ له. يعيش أيامه الحالية وهو يسمع جلبة أهلها القدماء، هذا ما شعرت به من حديثه، وعزمتُ على معرفة سرّ حبّه لغرناطة في وقت آخر، أريده أن يقصَّ عليَّ سرّه بعد أن يستوحيه من مسار حياته وحياة أهله الماضية.

شعرت بحضور مميز لأنطونيو بين الجالسين، لتمكّنه من اللغة العربية التي تخصص بها ونال أعلى الدرجات العلمية، ويتميز بكونه من جيل الشباب في حركة المستعربين الإسبان الذين يحملون راية اللغة العربية في إسبانيا.

تأكدت من حديثه بأنه يتحلّى بعواطف وأحاسيس خاصة به في عشق اللغة العربية، تبشر بدور مميز له في مجال الاستعراب الإسباني في المستقبل القريب، واستخلصت من حكاياه التي ردّدها في أمسيتنا الجميلة، وجود دلالات كثيرة تُشير إلى تميز حديثه باللغة العربية، وأهم ما لاحظته نطقه الكلمات العربية بسلاسة واضحة، واستحسانه مزج الفصحى باللهجات الشامية، وتميزه هذا شجعني على طرح أسئلة كثيرة عليه حول اختياره دراسة اللغة العربية.

وقد استفاض في الإجابة عن أسئلتي، وشعرت براحة ذهنية ونفسية وهو يردّد على مسمعي بحماسة ظاهرة أنه اختار دراسة اللغة العربية لسبب يتصل بأسرة أمه الغرناطية ذات الأصول الأندلسية، شأنها شأن أسرٍ إسبانية كثيرة يمكن تلمس أصولها العربية والبربرية من وجوه أبنائها.

والأبلغ تأثيرًا فيما سمعته عن أصل أنطونيو هو وجود مظاهر بائنة في وجهه تدل على أصله الأندلسي، وفي لحظة ظننته من أصدقائي الذين تعرفت عليهم قبل أيام قليلة في المهرة ومأرب وتريم وسيئون، وغيرها من المدن الحِمْيَرية الأخرى التي تنقلت فيها وحملت منها حفنة من ثراها ومن مداميك بيوتها الطينية للذكرى حتى أحفظ في بيتي بصمات من أجداد العرب من حِمْيَر حضرموت، أصحاب الحضارة التي ما زالت آثارها ماثلة للعيان حتى اليوم.

مرّ الوقت بطيئًا واستمر بصري بالتنقل بين أجزاء وجه أنطونيو الأسمر، وتابعت النظر في عينيه السوداوين اللامعتين، وفي لحظة تأكد لي أنَّ رذاذ قطرات دمٍ عربي من أهل الأندلس يسري في عروقه.

كنت أجازف بمقارنته بأصدقائي من اليمن الذين فارقتهم قبل أيامٍ قليلةٍ وأشعر تارة أنه الشقيق التوأم لصارم، وتارة ثانية أراه كثير الشبه بساجي، وطورًا أظنه من أهل هاني من مدينة تيزي أوزو الجزائرية، ومن أسلاف صناهجة حِمْيَر حضرموت.

جبلت وجهه بوجوه كثيرة دون استخفاف مني بما أفعله، ولم أشعر أنني في صراعٍ خفي مع أحكام القدر، قد لا يعنيه بحثي عن أصوله لكنني على قناعة بأن أصدقائي من المهرة الذين يحافظون حتى الآن على لهجتهم الحِمْيَرية يهمهم أن يكون أنطونيو منهم، كما همّهم أن يسري في عروقهم نفس دم هاني وثابت وغيث ودم كل قبائل الأمازيغ البربر.

سألني إدواردو:

«هل تستقي معلوماتك المعرفية عن أصول أجدادك القدماء، من أحاديث أسرتك الشفوية؟».

فأجبته:

«أعتبر الأحاديث الأسرية الشفوية مهمة، لكن الأهم هو النقوش المكتوبة بخط المُسند، والمكتوبة أيضًا على أعتاب وجدران وسقوف وعقود ما تبقى من مبانٍ ومعابد وقصور حِمْيَرية قديمة».

علّق إدواردو ثانية:

«أي أنك تعتمد في معلوماتك المعرفية على الآثار المادية التي خلَّفها الأجداد في جنوب الجزيرة العربية، ومنها القطع الفنية وأدوات الحروب والفخار والعظام، وما في قصور وقبور العظماء المشهورين من حُلي ذهبية وفضية ومجوهرات من العقيق والمرجان، كانوا بحسب أصول عبادتهم الوثنية يحفظونها مع الأموات في القبور لكي يستخدموها في حياتهم الثانية».

قُلتُ له:

«رأيتُ منها الكثير من مخلّفات الأجداد الحِمْيَريين، وعلمتُ من صديقٍ يمني خبير في آثار القدماء، أنَّ العلماء الحاليين يطلقون على علم الآثار الحديث علم «العاديات»، نسبة إلى قبيلة عاد اليمنية التي استقرت في حضرموت، وتنتمي إلى القبائل الحِمْيَرية».

خيم الصمت على الجميع، والنار الملتهبة أمامنا تزداد اشتعالًا، ويضارع نورها نور النجوم المنثورة في سماء الأندلس.

وفي لحظة دبَّ الهلع في قلبي، لأنني لم أجد إجابة لتخيلاتي عن أصل أنطونيو، لم أستسلم وواصلت تخيلاتي بالبحث عن أصله واقتنعت أنه يشبه صديقي «هود» الذي بنى أجداده قصر الجعفرية في إسبانيا.

تذكرت أمي في جلستنا لأنها كانت تقول لي دومًا بأنني لا أعرف الاستسلام، وأنني طويل الباع في الغوص في أعماق مصادر المعرفة، لكي تهديني إلى الحقيقة، حقيقة نفسي وحقيقة الذين حولي من الأصدقاء، وحقيقة من سبقنا من الأجداد.

شغلت بال أصدقائي بما حصلت عليه من معلومات أثرية عن الأصل العربي للأمازيغ، وفُرجت أساريري وأنا أحدّد لهم بصوت خافت جذور الصناهجة العربية التي تغور عميقًا في وادي وصحراء حضرموت، وغدا المكان كئيبًا بعد هجرتهم عند انهيار سدّ مأرب، واستقروا في أمكنة كثيرة بما فيها الأندلس، وحافظوا على أصولهم الحِمْيَرية الحضرمية.

زأر أنطونيو بأعلى موجات صوته وقال:

«ماذا قُلت؟».

وبينما كنت أفكر بمضمون سؤاله بصوته العالي، لاحظت أنه أزعج العصافير النائمة في أعشاشها المعلقة على أغصان الأشجار الممتدّة حولنا، إذ أفاقت وأخذت تزقزق بصوت حزين، وطلبنا منه الاعتذار لها.

ألهتني العصافير عن الردّ على سؤاله، وزأر ثانية مردّدًا نفس السؤال:

«ماذا قُلتْ؟».

(29)

لا ريب أنَّ أنطونيو اهتم كثيرًا بالردّ على سؤاله، ولـم أكـن على دراية بما يدور في خلده عمّا قلته قبل قليل، وقرّرت الإجابة عن سؤاله لكي أفتدي نفسي من أثر موجات صوته العالي.

قُلتُ له:

«كنتُ أتحدث عن أصل قبائل الصناهجة العربي، وأتسقَطُ أخبار أمجادهم في اليمن وفي الأماكن التي استقروا فيها في مهجرهم، خاصة في المغرب العربي الكبير والأندلس».

في الحال عبّر عن إعجابه بما قلته عن الصناهجة، وبيَّن أنّه وجد متعة كبيرة بما سمعه من معلومات مهمة عنهم لم يسمعه من قبل.

ثم سألني من جديد بصوت خفيض حتى لا يزعج العصافير النائمة:

«علامَ اعتمدت في قناعاتك؟».

كان عليّ أن لا أكرر ما قلته من قبل واكتفيت القول بإيجاز:

«اعتمدت على آثار الصناهجة المادية في وادي وصحراء حضرموت، وكتابات كثيرة عنهم من عيون المصادر العربية والأجنبية».

أبرقت عينا أنطونيو فجأة، وشعرت أنَّ كلماتي الأخيرة أدخلت السعادة إلى قلبه، وسرعان ما قال بحماسة ظاهرة:

«أسرة أمي من غرناطة، ويتسع حديث أمي دومًا بذكرها بإحساس مُرهفٍ لأنها مسقط رأسها، ورأت النور فيها لأول مرة في بيت يقع على طرف نهر حدرة الفاصل بين قصر الحمرا وحي البيازين».

ثم قال بافتخار بعيدًا عن «أنا» العصبية الزائفة:

«عندما بلغت سنّ الخامسة عشرة، أحضرتني أمي معها من مدريد التي نعيش فيها إلى مسقط رأسها غرناطة، وفي يوم ربيعي مدّ غلائله الوردية فوق قمة حي البيازين التي تعانق السحاب، دخلتُ معها قصر الحمراء لأول مرة في حياتي، تجولت معها في كل أجزائه، وسحرتني تشكيلاته الزخرفية المتنوعة والمتداخلة بتشابكات مع نتوءات بارزة من النقوش والنحت، تضفي عليها ضفائر قوافي أشعار ابن زمرك ولسان الدين بن الخطيب المنقوشة على الجدران لمسات جمالية نادرة، منسجمة في ظاهرها مع تشكيلات الفنّ المعماري لتركيبات القصر الداخلية والخارجية».

وجدت متعة بوصفه قصر الحمراء، واسترعى انتباه الجميع حديثه عن الثروة الفنية النادرة التي يتمتع بها القصر.

صمتَ بعض الوقت ثم استطرد قائلًا باهتمام زائد:

«تجولت مع أمي في أروقة كثيرة مزينة بلمسات إبداعية مبهرة، وسرعان ما اتسعت أحاديثها عن الثروة الفنية للقصر، وعن أمراء وقادة وسلاطين وملوك كثر عاشوا فيه، في دورات زمنية تتابعت فصولها في

أزمنة ماضية، ومنه رحل آخر ملك لغرناطة عندما انهار عرشه وتاه في وعور الشتات في دهاليز مدينة فاس القديمة».

كانت أمّه ترفق كلامها بتوضيحات تفصيلية دقيقة، لكي يستشفّ ابنها أنطونيو على نحو استثنائي معلومات كثيرة عن سيرة القصر الطويلة، وسيرة حكامه، وسيرة مدينتها غرناطة جوهرة المدن الأندلسية. أعجبه كلامها، وأحسّ في حديثها ملامح مرايا تعكس له الكثير من الحكايا التي غلبت عليها صياغات عاطفية، وتجلّت في خفاياها قدرة الأم على مزج الحكايا ببعضها البعض، والتعبير عنها بعواطفها الجياشة تعبيرًا جميلًا، فأثارت في نفس ابنها أعظم المشاعر وأعذب الأحاسيس.

وبينما كانت الأفكار تدور في رأسها سريعة عن تراث القصر الأندلسي، وارتباطها الروحي بكلّ ما هو أندلسي، توقفت فجأة في قاعة العرش، وأعادت عقارب الزمن عدة قرون إلى الوراء، ثم نظرت في عيني ابنها أنطونيو، وانتزعته من خواطره، وقالت له بنبرة مفعمة بالحماس، وكلمات فيها شيء من الافتخار:

«هذا قصر أجدادك يا ولدي عندما كانوا حُكّامًا لغرناطة في قديم الزمان».

التقط أنطونيو كلمات أمه باستغراب، ثم مسح بضع حبات من العرق تجمعت على جبينه، وفي لحظة أومأ برأسه موافقًا على كلامها، ثم سألها بصوت هادئ:

«هل أنا عربي يا أمي؟».

وبينما كان غارقًا في لجة من التأملات، أجابته قائلة:

«أجدادك ينحدرون من قبائل صناهجة الأندلس وهم من البربر».

صرخت بأعلى صوتي وقلتُ له بعاطفة زائدة:

«أجدادك من أسياد العرب العاربة، ينحدرون من حِمْيَر حضرموت، هذا ما نقشه خط المسند على بقاياهم الأثرية المادية، رأيتها بأم عيني أثناء زيارتي لليمن، وترجم لي أصدقائي ما تذكره عنهم الآثار الحِمْيَرية».

وكرّرت له ما قلته من قبل، بأنني نمت ليلة مع صديقي جمال في قرية ترابة الحضرمية، على مقربة من آثار قارة الصناهجة.

خيَّم الصمت علينا، وغاب أنطونيو في تخيلاته، ثم اتصل بأمه من هاتف البيت الذي نجلس في حديقته، وقال لها بسعادة لا توصف:

«أجدادنا الصناهجة من العرب العاربة».

قدمنا له التهاني، إدواردو وأوغسطين وأنا لهذه التغيرات الجوهرية في مسيرته الحياتية، وفجأة عزف أوغسطين بتلقائية على قيثاره، وغنى أغنية شعبية ترددها في الزمن الحالي فرق الفلمنغو عن آخر ملك فقد عرشه في قصر الحمراء، وسقطت بنهايته مملكة غرناطة، وهو ينحدر من أصول خزرجية، ولا علاقة له بالصناهجة أجداد أنطونيو.

استمتعت بسماع الأغنية، وتمتمت بصوت خفيض متسائلًا:

«هل فعلًا يُمجَّد عبدالله الصغير في أغاني الزمن الحالي في غرناطة؟».

سمعني المغني وردّد كلمات الأغنية بكلماتها بدون موسيقى وغناء، لفت نظري أن عبدالله يسميه الإسبان «أبو عبديل» وكرّرت الأغنية اسمه مرات

عديدة، وأكد شاعرها بأنه ما زال يعيش في غرناطة، ويسكن في قصر الحمراء.

وبينما كنت أسمع كلمات الأغنية في منتهى التأثر غارقًا في بحور من التأملات، توقف الحديث فجأة، وواصل أوغسطين الغناء من جديد، استمتعنا بغنائه، وعبّرتُ بكلمات ملؤها الفكاهة عن أهمية الغناء في الليل على نور الجمر المشتعل، ووصفت أمسيتنا بالنادرة لأنّها مضاءة بجمر من أغصان أشجار الأندلس.

علّق أنطونيو قائلًا:

«أشجار زرعها أجدادي من الصناهجة، تفوح منها رائحة زكية كرائحة البخور الذي اشتهر به أهل اليمن منذ أقدم العصور».

لاحظت وجود تراكمات أخرى في ذاكرة أنطونيو عن حديث أمه له في قصر الحمراء، داعبتُ، في تلك اللحظة غصن نبتة كبيرة من الورد الجوري مزروعة بجانبي، ونظرتُ نحو أنطونيو متسائلًا:

«أكمل لنا حديث أمّك الذي بدأت سرده بقاعة العرش؟».

نظر بوجوهنا باسمًا وهو يقول:

أضافت أمّي قائلة:

حافظ أجدادك على سرّ أصلهم طيلة خمسة قرون بعد سقوط غرناطة، وأخفَوْا سرّهم الديني بأنهم اعتنقوا المسيحية بقرار من محاكم التفتيش، وأن الاسم الجديد «موريسكي» الذي أطلق عليهم ويعرفون به حتى الآن، فيه دلالات تشي بتقليل قدرهم، وتذكيرهم بهزائمهم وسيطرة الطرف الآخر عليهم في مسار حياتهم، وحتى في تبديل دينهم.

(30)

تريث إدواردو قبل أن يتحدث، ثم بيَّن لي أنّ كلمة موريسكي مشتقة من «مورو» التي يطلقها الإسبان على المغاربة، وهي كلمة تصدح بنبرة واضحة تقلل من شأنهم، وتدفعهم للهجرة إلى دول المغرب العربي الكبير، وهاجر منهم كثيرون ما زالوا يحملون حزمًا من مفاتيح بيوتهم القديمة في الأندلس، ويأملون بالعودة لها وفتحها والعيش فيها من جديد.

وعلى الفور قلتُ لإدواردو:

«أنا أحمل مفتاح بيت أهلي في حيفا، وأحمل مفتاح بيت أهلي في قرية أجدادي في برقة».

وتفاجأت عندما سمعت إدواردو يتجاوز كلّ التوقعات، ويقول:

«والدي يحمل مفتاح بيت أهله في دير البلح».

حانت مني نظرة سريعة إلى إدواردو وسألته:

«هل أنت فلسطيني من غزة؟».

أومأ برأسه مؤيدًا كلامي، وبيّن أنّه يحظى بالعيش في إسبانيا ورام الله.

نظرت إلى أنطونيو في تلك اللحظة، وسألته مستوضحًا:

«هل غير أجدادك بعد تغيير دينهم، كل شيء في حياتهم: لغتهم وعاداتهم وأكلهم وصلاتهم وحجهم وصومهم؟».

بلع ريقه بصعوبة وأجاب بكلمات واضحة بأن أمه حدثته عن هذا الجانب أيضًا، وبينت له أن أجداده لم يجاهروا بانتمائهم القومي والديني،

حتى لا يؤلّبوا السلطة الحاكمة عليهم ويقوموا بلَيٍّ رقابهم، ويصبغوا نهر حدرة بدمائهم كما سال دم أبناء جلدتهم فيه من قبل عندما سقطت غرناطة.

استدرت بوجهي وركزت على الجهة المقابلة للنار المشتعلة، وسمعت في تلك اللحظة أوغسطين يتحدث عن أوضاع غرناطة عندما سقطت، تمالكت نفسي بعض الوقت، ثم قلتُ لهم إن مصيرهم كان مصير الضحايا، فقدوا العروش والقصور ومساحات كبيرة من الأراضي والسهول، مات منهم من مات، وطرد منهم من طرد، وبقي من بقي من المورسكيين كأجداد أنطونيو، وكتب الكُتّاب عنهم آلاف المجلّدات طيلة القرون الخمسة الماضية بعد سقوط غرناطة، ولا تهمّني الكتابة عنهم الآن، والانبطاح على طرف نهر حدرة والنواح عليهم وعلى مصيرهم المأساوي.

قال إدواردو موجهًا حديثه لي:

«ما تقوله هو عين العقل، يكفينا ما كتبه الكتاب عنهم، ويكفينا ما تخيلوه في طروحاتهم عن شحنات أحداثٍ كثيرة، تخيلوها ولا علاقة لها بالحقيقة، إنها مجرد كلمات استغرقوا عند كتابتها بعض الوقت في حُلمٍ من أحلام اليقظة».

شجعته ابتسامة عريضة رسمتها على وجهي أن يواصل الكلام، وقال بصوت هادئ:

«لا يعجبني التكلّف الزائد في الكتابة، عندما يخوض الكاتب غمار التاريخ ويقفز فيه في أعماق التخيلات».

قُلْتُ لهُ وأنا ألازم كل كلمة قالها:

«لهذا اهتممت بمعرفة ماضي الصناهجة والقبائل الحِمْيَرية الأخرى من دلالات كنوزهم التراثية الأثرية، وزرت اليمن وجلتُ فيه وتعرفت على مآثره الحضارية، ولديَّ كمٌّ من المعلومات الأثرية التي كتبتها في عمق سطور أوراقي، تغور فيها كما تغور جذور شجر اللبلاب في حقول مأرب».

اتسع مدى الحديث عن آثار الصناهجة التي تعرفت عليها في أماكنهم الأثرية أثناء زيارتي الأخيرة لليمن، وشاء لي أن أكون شاهدًا على عظمة الحضارة الحِمْيَرية واليمن القديم، وأتاحت لي تلك الفرصة أن أغرس في ذاكرتي كل الدلالات الأثرية القديمة لأثبت لأمّ أنطونيو أنها من صناهجة العرب العاربة، وأن الأمازيغ هم منهم أيضًا، نسجوا خيوط أصولهم الأولى على منوال يمني في وادي وصحراء حضرموت.

بعدها اختلطت أحاديثنا ببعضها البعض، وبادرت بالنظر في وجه أنطونيو وفاجأته بسؤالٍ وجهته لهُ:

«ابتعدنا كثيرًا عن حديث أمك لك في قاعة العرش، هل لك أن تكمل ما بدأته من قبل».

بيّن لنا أنه راق له حديثها وهي تردّد حيثيات جوانب أخرى عن أجداده، وشعر بالسعادة عندما اتسع شرحها عنهم، وبينت له أنّ الجدّ

الأكبر احتفظ بمخطوط مصحف قديم كتب بخط اليد، وجُلِّد بجلد الغزال كما كانت تُجلَّد المصاحف القديمة، وأكدت بدلالات بارزة أن الأجيال المتتالية من أهلها الصناهجة قد تعاقبوا على حفظه سرًّا في مخابئَ آمنة في بيوتهم، واستمر المصحف بالتنقل من جدٍّ إلى آخر حتى وصل إلى والدها، وقد رأته بأم عينها في بيتها في غرناطة بعد أن اعترف لها والدها (جد أنطونيو) مع شقيقها عن أصول أسرتهم، بعدها هاجر والدها إلى أمريكا اللاتينية، وأخذ معه مصحف أجداده القديم، لكنه للأسف فقده في دروب مهجره البعيد، وفقدت أسرتها أحد كنوز أجدادها التراثية التي تُذكرهم بدينهم القديم ومسار قبائل الصناهجة من وادي وصحراء حضرموت حتى الأندلس.

شدّني أنطونيو في حديثه عن أصوله الأندلسية العربية التي تدفق بالحديث عنها في نسيج حكائي كثيف، وشعرت من انفعالاته الكثيرة التي توالت أثناء حديثه بأنه اختار دراسة اللغة العربية لأنها لغة أجداده القدماء من أهل الأندلس.

تطلعت إليه مبتسمًا، وقلت له:

«تُذكرني بالممثل الإسباني العالمي أنطونيو بانديراس الذي يفتخر دومًا بأصوله الأندلسية وبالدم العربي الذي يسري في عروقه، إنك تشبهه وتشبه آلاف الإسبان الذين تجري في عروقهم الدماء العربية».

ضحك بصوت عالٍ، وأوغل بالحديث قائلًا:

«ستجد في إسبانيا مثلنا آلافًا مؤلفة، يتمتعون بخصائص جينية بائنة تؤكد على أصلهم العربي».

وبينما كنت ألملم بعض المعلومات التي كانت تتقافز هنا وهناك، لفتُّ نظر أنطونيو إلى أن أسماء أجداده من ملوك ومشاهير غرناطة، كانت تنتهي باسم أصلهم العربي الحِمْيَري الحَضرمي، وكمثال ذكرت له اسم زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجيّ، أول حكام طائفة غرناطة في عهد ملوك الطوائف، واسم حبوس بن ماكس بن مناد الصنهاجيّ الحِمْيَري الحَضرمي، الذي تولى الحكم في غرناطة أيضًا في عهد ملوك الطوائف، وذكرت أيضًا اسم باديس بن حبوس الصنهاجيّ، ثالث حكام طائفة غرناطة الذي اعتلى سدة الحكم قبل نحو ألف عام.

استرعى انتباهَه حديثي، وطلب مني أسماء المراجع التي اعتمدت عليها، إضافة إلى المعلومات الميدانية التي جمعتها في زيارتي الأخيرة لليمن، وحصرتها له بمراجع الطبري وابن الكلبي وابن خلدون من الزمن القديم، وبعشرات الكتب التي أصدرها في الزمن الراهن عدد كبير من البحاثة.

والأبلغ تأثيرًا في ما قلته لأنطونيو، هو أنّ الدم العربي يسري في عروق أبناء البربر أيضًا، وقد التقيت بمجموعة منهم في مدينة الغيضة عاصمة المهرة، ووجدتهم يتقنون لهجة المهرة المشتقة من اللغة الحِمْيَرية القديمة التي يتقنها بعض اليمنيين في الزمن المعاصر.

وفي إطار الخطوط العامة لمداخلتي، بيّنت له أنَّ المشاهير من الشعراء اعتزوا منذ القدم بأصل أجداده العربي الحِمْيَري القَحطاني، وقال أحدهم وهو الشاعر ابن رشيق القرطبي مادحًا ابن باديس الصنهاجيّ:

يا ابنَ الأعِزَّةِ من أكابرِ حِمْيَرٍ وسلالَةِ الأملاكِ مِنْ قَحْطانِ

ابتسم أنطونيو، والتفت إليَّ قائلًا:

«سوف أخبر أمي بما كتبه الشعراء عن أجدادها».

غرق أنطونيو في بئر من التأملات ضمن بعد زمني مطلق السعة، وشعرت أنه يجول ببصره في أمكنة كثيرة تمتد من أطلال أجداده، في قرية ترابة في وادي صحراء حضرموت حتى قصر الحمراء في غرناطة.

في تلك اللحظة، ألقيت نظرة على ساعة يدي ووجدت أن عقاربها تشير إلى الثانية عشرة مساءً، وأن الليل يدور حول منتصفه، وضوء النار التي حولنا يخفت بسرعة، والنار على وشك الانطفاء، ولن يُسعفنا ضوء النجوم من ظلام الليل في ليلة ليست السماء فيها صافية، بل ملبدة بغيوم كثيفة تخفي عن الأرض ضوء النجوم.

ما لبثتُ أن قلتُ لأصدقائي أن ساعة النوم قد أزفت، وسرعان ما اقترحت عليهم أنْ ننهي جلستنا.. وافقوا على اقتراحي، ثم اتفقت مع أنطونيو على اللقاء ثانية بعد يومين في مدينة المرية، للمشاركة في المهرجان الشعري الذي جئت من أجله.

ألقيت عليهم نظرة وداعٍ، وبعدها أطفأت ما تبقى من النار التي اشتعلت حولنا طيلة الليل، ثم اتجهت ببطء عبر ممر قصير إلى غرفة النوم المخصصة لي في البيت الريفي الذي أقيم فيه.

***

التقيت بأنطونيو وصديقيه ثانية في الموعد المحدد لبدء المهرجان الشعري في مدينة المرية، وحال لقائي بهم أعلمني أنطونيو أنه ترجم إلى اللغة الإسبانية قصيدتين من قصائدي عن حيفا، واقترح عليَّ أن نقدمها معًا في بداية المهرجان، بحيث أردّدهما أنا باللغة العربية، ويقرؤهُما هو باللغة الإسبانية. وهذا ما تم.

قدمني أنطونيو للحضور وصرخت بأعلى صوتي مرددًا أبياتًا من قصيدةٍ عنوانها «أنا من هنا»، وقد نظمتها عندما زرت مسقط رأسي حيفا لأول مرة بعد مرور ستة عقود على النكبة. اتسعت الرقعة الزمانية والمكانية في شعري عن حيفا، علا صوتي وشعرت أنه يُلامس أمواج البحر الأبيض المتوسط القريبة مني، وتمنيت أن تحمل الأمواج في طياتها قوافي قصائدي إلى شاطئ العزيزية في حيفا المحتلة.

وبعد أن أنهيت القصائد التي ألقيتها، قدم أنطونيو القصائد نفسها باللغة الإسبانية، وعلا صوته وهو يقرؤها بعاطفة فائقة وأسر قلوب المستمعين، ووزع عليهم نسخًا من الشعر الذي ترجمه، ليتذكروا دوما جنة نادرة من جنان الدنيا، اسمها حيفا.

لاحقًا انتهى المهرجان الشعري، وسرعان ما غادرنا القاعة التي ألقينا فيها الشعر، ثم مضينا معًا أنا وأنطونيو إلى الشارع الملكي، ثم دخلنا مطعم «بيت بوغا» وهو من المطاعم المميزة في المرية، يحتاج إلى حجز مسبقٍ وانتظار زبائنه فترة طويلة من الوقت لتناول الطعام فيه.

وبينما كنا نتناول وجبة من أشهى المأكولات الأندلسية التي تتكون من ثمار البحر، بيّنت لأنطونيو عن رغبتي في التعرف على سيرته في دراسة اللغة العربية، وفي الحال بين لي أنه درسها لأنه يعشقها، وكشفت له دراسته مادة «علم السيمياء للغة العربية» عن سحرها وقدرتها المميزة على الاشتقاق، وإمكانياتها العجيبة في التأقلم مع مستجدات العصر الحديث.

تبدّى من حديثه أنّ أجواء الجامعة الثقافية المتميزة، ساعدته على المساهمة في تأسيس فرقة مسرحية من طلبة الجامعة، سنحت لها الفرص للمشاركة في بعض المهرجانات المسرحية التي نُظمت في المغرب والجزائر ولبنان، وأنه شارك في الفرقة بتمثيل أدوار مقتبسة من قصص عربية تراثية.

تابع حديثه مبينًا أنه تابع دراسته للغة العربية وآدابها حتى حصل على أعلى الدرجات العلمية في مجالها، وكانت نبرة صوته تنضح بالفرح، وقلت له في الحال بقدر من السذاجة:

«أنت تتقن اللغة العربية إتقانًا باهرًا لأنها لغة أجدادك، ولست بحاجة للشهادات».

ضحك ضحكة طويلة أثارت زبائن المطعم الجالسين قربنا.

وقلتُ لهُ ثانية:

«في ضحكتك بصمات من أجدادك القدماء».

وتساءل:

«هل نتفرد بكل شيء من أجدادنا؟».

فقلتُ له:

«هذا ما يقوله علماء الجينات الوراثية».

ثم أسرعت مضيفًا:

«ما يقولونه صحيحٌ بكل المعاني، ينطبق على ضحكنا وبكائنا وشعورنا في الأفراح والأتراح».

وسألته أيضًا:

«هل تُحب لعب الشطرنج والجلوس في قصر الحمراء لفترات طويلة؟».

فكر مليًا وقال:

«أجل أحبُّ لُعب الشطرنج، وأتمنى أن أقضي كل عمري في قصر الحمراء».

علقت بنبرة تشي بأنني من علماء الجينات، وقلتُ:

«أنت ورثت حزمة كبيرة من الجينات من جدك باديس أحد أهم ملوك الصناهجة، لأنه كان يهوى لعب الشطرنج وهو الذي شيد قصر الحمراء».

ضحكنا معًا، ثم سألني:

«هل درست علم الجينات الوراثية».

التفتُّ إليه بجدية زائدة، وقلتُ بنبرة مغمسة بطبقة كثيفة من التندر والفكاهة:

«لا أعرف عنه أكثر مما تكتب عنه الصحف العادية بقلم كتاب عاديين من غير الخبراء المختصين بعلم الجينات».

تهالك على مقعده من الضحك، ثم شكرني على صراحتي.

(31)

لاحظت من حديثه أن اهتمامات أنطونيو الفكرية واضحة، يهمه رحيق الحقائق الملموسة فقط، والدوران في فلك الفكر اليساري مثل الشاعر الغرناطي العظيم لوركا، وكل أهله مثله، وقد التحق الكبار منهم بالجمهوريين عندما اندلعت الحرب الأهلية، واستشهد أحدهم في جبهة القتال.

هكذا حدثني عن نفسه وأهله، ثم أضاف بعد صمتٍ قصير عن الكلام:

«لم يجرؤ أهلي وهم من المورسكيين على إظهار انتمائهم الديني للإسلام دين أجدادهم القدماء، لكن جدي من أمي كان عندما يسبح في البحر يعتمر طاقية بيضاء، القبعة نفسها التي يعتمرها أتباع الدين الإسلامي وقت الصلاة، وفي مناسبات كثيرة سمعته يردّد بأعلى صوته كلمات متقطعة غير مفهومة، تشبه في إيقاعها دعوة الناس إلى الصلاة».

لم يتعرف أنطونيو على سرّ ممارسات جده، لم ينطق جده بسره لأحد، لكنّه بيَّن لي أنه يظن أن جده يريد أن يؤكد على أصوله وأصول أجداده مع إدراكه بأن عقارب الزمن لا يمكن جرها إلى الخلف، حتى يجعل زمنه الحالي كما كان قبل سقوط غرناطة، قبل خمسة قرون وأكثر، ويمارس حياته كما مارسها أجداده أيام حكمهم لغرناطة في زمن حكم ملوك الطوائف.

أغمض أنطونيو عينيه وصمت فترة من الوقت، ثم أوغل بالنظر بالبحر القريب منّا، وأخذ خيط الحديث من جديد، وتوسّع في حديثه حول جده، وقال لي بزهو إنه كان يتمتع بسمعة طيبة بين معارفه في مدريد، ويصرّ على ذكر اسمها باسمها العربي «مجريط»، وكان يقول دومًا بأنها مدينة بناها العرب في عهد الأمويين خارج حدود الأندلس، كان كثير الزهو بها، لكنه كان يحبُّ غرناطة أكثر لأنها مسقط رأسه ورأس أجداده، وكان يحلو له الجلوس على ضفة نهر حدرة، وفوق قمة أعلى نقطة في حيّ البيازين (اسمها الحالي مطلة سان نيكلاس) تقع في الجهة المقابلة لقصر الحمراء قصر أجداده، ويرى منها كلّ غرناطة وكلّ ما يحيط بها من أشجار باسقة، ويرى بتخيلاته أطياف أجداده، وطيف آخر ملكٍ لغرناطة إذ توارى وجهه بغبار أحصنة كانت تدق طريق رحيله إلى مدينة فاس القديمة.

رغبت أن أعيده ثانية إلى جده، وسألته مرتبكًا:

«هل زار جدك جامع قرطبة؟».

تفاجأت عندما قال لي بشرحٍ موسعٍ بأنه زاره كثيرًا كلما سنحت له الفرص للتمتع بزيارة قُرطبة.

انقطع خيط الحديث وصمت أنطونيو، ثم أمتعني بخبر على غاية من الأهمية لا يتعلق بالتاريخ القديم، وإنما يتعلق بمساره الدراسي في مدريد، حكّ جبهته ونبش في ذاكرته وانفرجت أساريره، ثم قال بصوت عاطفي:

«تأثرت كثيرًا بجدي الذي عرفني في صغري على مسجد قُرطبة، وتقديرًا له استدعيت ذكرياتي معه أثناء دراستي لنيل درجة الدكتوراه،

وأسعفني الحظ في أن يكون عنوان رسالتي: مسجد قرطبة في شعر النهضة الثانية».

رصد أنطونيو في رسالته باقات من الشعر نظمها شعراء كبار من الرحالة العرب في مديح المسجد الأموي الشهير، وصفوا أعمدته بتيجانها المزخرفة وألوانها الجذابة، كانت قوافيهم تهز الجدران، وتعيد للأذهان معلومات حضارية عن قرطبة، ومن هؤلاء الشعراء: أحمد شوقي، وشكيب أرسلان، وأبو الفضل الوليد، وأمين الريحاني.

بعدئذ اتسع شرحُه وهو يعرض عليَّ نبذة من سيرته الوظيفية، تبدّى لي منها أنَّ الصدف قادته دومًا نحو الدول العربية التي يعشقها، وسرعان ما أخبرني أنه علَّم اللغة الإسبانية في بيروت، وفي جامعتي دمشق وصنعاء، وفي رام الله.

تابعت معه إشعاعات إنجازاته في رام الله، ووجدتها متشعبة في مجالات كثيرة، منها المشاركة في مظاهرات بلعين ونعلين الأسبوعية ضدّ جدار الفصل العنصري، وعند ذكرها أومأ برأسه متصورًا مشاهد تلك المظاهرات بعد مرور سنوات طويلة، ثم أمطرني بكلمات عاطفية عن زراعته شجرة زيتون في قرية سالم الواقعة في شرق مدينة نابلس، وأجهد نفسه بحديث مفصل عن زيارات قام بها لمجموعة من المدن الفلسطينية.

فجأة فقد أنطونيو خيط الحديث عند هذا الحدّ من الكلام، ثم أخذ شهيقًا مشبعًا بهواء البحر القريب منّا وخيم السكوت.. سرح صامتًا وشعرت أنه يتأمل أطياف أفكارٍ تمرّ بخاطره، تشعّ منها انفعالات

وعواطف جياشة، يحاول فيها إيقاظ ذكرى أجداده الصناهجة من عرب حِمْيَر حضرموت الذين حكموا غرناطة، واكتسبوا شهرة كبيرة في تاريخها.

خرجنا من المطعم واتجهنا مشيًا على الأقدام نحو مركز المدينة، وبعد فترة وجيزة مشينا معًا في شارع جيان الذي تزينه أشجار البرتقال، وبينما كنا نتحدث عن المرية، وما دار فيها من أحداثٍ عندما حكمها الصناهجة في الوقت الذي كانت فيه تابعة لغرناطة، أحسست برائحة زهر البرتقال الطيبة، التي يعتبرها خبراء العطور أقوى الروائح جاذبيّة، أمسكت زهرة بأصابعي وقرَّبتها من أنفي، ثم استعدت حزن الشتات الذي أعيشه، ظهر الحزن على تجاعيد وجهي عندما تذكَّرتُ رائحة زهر برتقال يافا الذي حُرمتُ منه وأشتاقُ لهُ في كلّ آن.

سرعان ما تشعب الحديث وطاف في مدارات كثيرة، اتفقنا في سياقه على قلة الآثار التراثية بمدينة المرية، رغم تفوقها البحري كميناء مهم في الزمن الماضي، وبيَّن أنطونيو في هذا الجانب أنَّ أهم ما فيها من آثار باقية حتى الآن، هو قلعة القصبة التي تتكون من عدة حصون، وتعتبر ثاني أهم قلعة بالأندلس، وفيها بقايا محراب مسجد عليه طبقة من التوريقات الجميلة، وفيها أيضًا بقايا بيت قديم فيه زخرفة تشبه زخرفة المرابطين.

اجتاحني شعور بالراحة وأنا أشمّ رائحة زهر البرتقال، لاحظ أنطونيو آثار شعوري على وجهي، وقال تلقائيًا:

«بيتي على مقربة من هنا، إنه في شارع جيان، وفي حديقته شجرة برتقال كبيرة أريد أن أصورك بجانبها، وأن أعرفك على زوجتي وابني وبيتي».

التفتُّ إليه، وقلتُ:

«تشرفني دعوتك لزيارة بيتك».

توجهنا معًا من فورنا نحو بيته، وعندما وصلنا هالتني ضخامة شجرة البرتقال المزروعة في حديقته، اتقدت عيناي بالسعادة عند رؤيتها، وزادت سعادتي عندما لامست أوراقها بأصابعي، وسمعته يتمتم بصوت خفيض قائلًا:

«إنها تذكرني ببرتقال يافا».

ولأهمية معنى الانتماء للأرض، أعاد ذكر شجرة الزيتون التي زرعها في قرية «سالم» قرب مدينة نابلس.

دخلنا البيت وعرفني على زوجته كارمن مانويل، وعلى ابنه الصغير مانويل. علمت من زوجته أنها غرناطية. جلسنا في صالة الجلوس، وارتشفنا ثلاثة فناجين قهوة إسبريسو، ووجدت متعة برؤية شبكة نقوش أرابيسك عصرية جميلة على جدران بيته الداخلية، وسرعان ما تحدثنا عن أهمية الحفاظ على هذا الفنّ الجميل في حياتنا الحالية.

تابعنا الحديث بعد ذلك حول اهتمام أنطونيو وزوجته بفنّ الأرابيسك الحديث، وبيّنت باهتمام زائد أنَّ جدار بيتهم الخارجي يؤكد في مطلق الأحوال عشقهما لهذا الفنّ، لأنّ الجدار موشّى على امتداده بالنقوش الجميلة.

(32)

نظر أنطونيو إلى ساعة يده، وأخبر زوجته بأن علينا الخروج، وما لبثت بعدها أن ودعتها مع طفلهما الصغير، بعدها اقترح علي أنطونيو أن نزور صحراء «تابيرناس» القريبة من المرية، للتعرف على تضاريسها الصحراوية، وعلى ارتفاع درجة الجفاف فيها التي تجعل من المرية أكثر مدينة جافة في أوروبا.

اتجهنا نحوها بسيارة أنطونيو، في وقتٍ كان فيه قُرص الشمس يقلُّ احمرارًا وتقتربُ لحظة المغيب، ومن حسن الطالع أننا وصلنا إلى الصحراء بعد نحو نصف ساعة لا أكثر، وعند وصولنا لم نترجل من السيارة، واكتفينا أن ندور حول جهة من الصحراء بالسيارة فقط، وأبديت ملاحظة لأنطونيو، بيّنت فيها صعوبة تنفّسي في الأجواء الصحراوية، وهذا ما أحسُّ به في أجواء الكويت الصحراوية التي أعيش فيها منذ عشرات السنين.

وعندما اقترب اختفاء قُرص الشمس في السماء في وقت الغروب، قفلنا راجعين على أعقابنا، واجتاحتني فرحة للرجوع مبكرًا لقرية القيعان التي أسكن فيها، والتي تقع على مقربة من أعتاب المرية. خيم الصمت علينا طيلة الطريق الممتدة نحو القرية، وعندما وصلنا ترجلنا من السيارة ووقفنا بعض الوقت أمام البيت الذي أسكن فيه، ثم جلسنا على مقعد طويل، وأشار أنطونيو بإصبعه نحو الجهة المقابلة لنا، ونظر نحوي ونطق قائلًا:

«هناك غرناطة قريبة منا تزهو بجمال طبيعتها منذ أقدم الأزمان».

قلتُ:

«إنها مدينة أجدادك ويمكنك لقربها زيارتها في كل آن».

وردَّ عليَّ مُبتسمًا:

«غدًا تبدأ إجازة نهاية الأسبوع، ووعدتُ أمي أن أزورها، وهي مناسبة أن نلتقي ثلاثتنا في غرناطة، وأن تُكحّل عينيك بها وبقصر الحمراء».

وافقت فرحًا بدعوته، وتهلل وجهه، ثم سألني:

«متى ينتهي عقد إقامتك في هذا البيت؟».

فأجبته:

«دفعتُ اليوم للمكتب المسؤول عن تأجير البيت كلَّ ما عليَّ دفعهُ، وغدا سيأتي منهم أحد المسؤولين لتسليمه المفتاح».

أسعدهُ ما سمعهُ مني وأخذنا باحتساء القهوة على الطريقة العربية التي يسبح فيها حبّ الهال، ثم لم يفتهُ ذكر إجراءات مهمة عليه القيام بها في صباح الغد، وتتلخص بمجيئه المبكر عندي بسيارته، ثم تسليم مفتاح البيت للمكتب المؤجر، وبعد فترة انتظار قصيرة سيقود سيارته إلى غرناطة.

رمقني بطرف عينه وقال:

«سوف نلتقي بأمي على الباب الرئيس لقصر الحمراء».

انتهينا من شرب القهوة، وتهيأ أنطونيو للعودة إلى بيته في وقت أرخى فيه الليل خيمته المظلمة على اتساع المكان. حرك سيارته ولوح لي بيده مودعًا، وبعد رحيله اتجهت إلى غرفة نومي، وحاولت إغلاق جفوني،

لكنني لم أتمكن من النوم.

أخذت الأفكار تدور في رأسي حول تلك الليلة التي نمتها في قرية ترابة في وادي حضرموت على مقربة من قارة الصناهجة. قلتُ في نفسي:

«غدا أرى بصمات أسياد الصناهجة في قصرهم الذي جعله ابن باديس مفخرة الفنّ المعماري على مدى العصور».

غرقتُ في هواجسَ أتعبتني، وسرعان ما شعرت في تخيلاتي بأنني في موكبٍ طويلٍ بدايته عند عرش مأرب، في وادي وصحراء حضرموت، وآخره على مقربة من قصر الحمراء، يضمُّ أناسًا كثرًا من الصناهجة الحِمْيَريين، من أصحاب المقامات الرفيعة، ذُهلتُ لتخيلهم وأنا أتقلّب في فراشي.

رمقتهم طويلًا بعينين ذابلتين، وأنا غير قادرٍ على النوم، وبغتة لاحقتني الهواجس، أحاطتني من كلّ جانب، وفي لحظة تساءلت بأسرع ما أستطيع:

«لماذا يأتي الصناهجة إلى غرناطة في هذا الوقت؟».

أعدت ترتيب أفكاري، وخُيرت بانتقاء إجابات كثيرة، ثم قفزت في طيات فراشي وقُلتُ بعبارة حادة:

«إنّهم في طريقهم إلى غرناطة مثلي كسياح، لأنّ الفتوحات انتهت منذ زمن طويل».

تسارع تثاؤبي وتركت فمي يفعل ما يحلو له في مجال الشهيق والزفير، وبعدها لم يمهلني النعاس، وتمكنت من إغلاق عيني، بعد أن أقمت ائتلافًا مع النوم بعيدًا عن عالم التخيلات.

(33)

وصل أنطونيو مبكرًا في صباح اليوم التالي، في الوقت الذي وصل به أحد مسؤولي مكتب تأجير البيت، وفي الحال أنهيت معه كل الإجراءات اللازمة عند المغادرة، ثم ركبت بجانب أنطونيو وانطلقنا بسيارته من قرية القيعان نحو غرناطة.

ثبتُّ بصري على صفوف أشجار الزيتون المنتشرة على مدى النظر، أثارت عواطفي لأنها من الأشجار المباركة التي تكسو أرض بلادي منذ آلاف السنين.

لاحظ أنطونيو تأثري بمنظر أشجار الزيتون، وأعجبني ردّ فعله بقوله:

«من حُسن حظي أنني زرعتُ شجرة زيتون في قرية سالم القريبة من مدينة نابلس».

وتساءل:

«لقد ذكرتها لك بالأمس».

فأجبتُه:

«ذكرتها لي، ولهذا لك حصة من زيتون بلادي».

ثم قال:

«كتبتُ على جذعها اسمي باللغتين العربية والإسبانية، وملكني مختار القرية بنفسية متفتحة الشجرة والأرض المزروعة فيها».

تساءلت:

«ماذا كان ردُّ فعلك؟».

قلتُ للمختار:

«سأعود لشجرتي فرحًا بها عندما تحتفلون بيوم العودة».

عانقه المختار وشدَّ على يديه، وما زال أنطونيو على تواصل معه عبر الهاتف، يتصلُ معه بين الحين والحين ويسأله عن شجرته، وسرعان ما يقول له المختار، إنها تزداد طولًا وضخامة وتمتد أغصانها في كل الجهات.

علقتُ مبتسمًا:

«أظنها ستمتد إلى مدينة نابلس القريبة من قرية سالم وستطلُّ أغصانها على جبل عيبال».

خيم الصمت علينا بعض الوقت، ولم أبعد نظري عن أشجار الزيتون القريبة من الطريق، وفي لحظة رسم رفيق رحلتي ابتسامة عريضة على وجهه وأخبرني بفرح زائد:

«نحن الآن على أبواب غرناطة، أهلًا بك في مدينة أجدادي».

عبّرتُ له عن فرحي لوصولنا غرناطة، بعدها اختلطت مشاهد المدينة ونحن نتابع اختراق شوارعها، توالت انفعالاتي عندما رأيت عن بعد حي البيازين، مضينا قدمًا في شارع طويل من شوارع المدينة، وفجأة انعطف أنطونيو صعودًا بسيارته في شارع يمتد في الطرف الأيمن من المدينة، وتبدّى لي من كلامه أنّه الشارع الذي سنصل عبره إلى قصر الحمراء، بعدها رفع من وتيرة سرعة سيارته بسبب الصعود إلى أعلى، واستمر

بصري بالتنقل بين مشاهد كانت تتوالى على امتداد الشارع، لم تبدُ لعيني عادية، وبعد هنيهة أوقف سيارته في ساحة عامة للسيارات، ومن ثم ترجلنا وقال بصوت هادئ:

«هذا هو قصر أجدادي من صناهجة حِمْيَر حضرموت».

اتجهنا مشيًا على الأقدام نحو القصر، وفي لحظة توقف أنطونيو وأخذ يلوح بيديه فرحًا لرؤية أمه الواقفة أمام المدخل الرئيس للقصر، الذي يُطلق عليه أيضًا اسم «باب الشريعة»، هكذا قُيض لي أن ألتقي بها في قصر أجدادها، بدون معرفة سابقة بها.

قدم لي أنطونيو أمه باسم مارجريتا، وقدمني لها، أخذت تُحدّق بي بينما كنت واقفًا أمامها مطرق العينين في شوقٍ ولهفة لسماع رأيها بما قلته لأنطونيو عن أصول أجدادها العربية.

واصلنا الوقوف ثم قالت:

«حدثني ابني أنطونيو عن كلّ البراهين التي أثبت فيها حقيقة جذورنا العربية، وأنا فخورة بما توصلت إليه، ولا أريدك أن تتلفظ لي بما قلته لأنطونيو، فأنا على دراية به».

كنت سعيدًا لما سمعته منها، وازدادت سعادتي عندما شكرتني للمعلومات التي قدمتها لأنطونيو عن أجداده الصناهجة في اليمن، ومهجرهم الذي استقروا فيه في دول كثيرة.

لم أصدق أذنيّ وأنا أسمع كلامها، وأخذ قلبي يدفع صدري دفعًا قويًّا إلى أعلى، وتأكدت أنني أعيش مشهدًا غير مألوف لم أحلم به من قبل.

تواصل وقوفنا أمام باب الشريعة، ثم دلفنا إلى داخل القصر وشعرت بسعادة لا توصف لأنني كنت أستنشق رائحة ملوك القصر الأولين، وأرى بصماتهم على الجدران، وأجد نفسي أنني في بيت رفيق رحلتي، لأن أجداده من أمه أقاموا فيه، ويزداد فخرًا بهم في كل يوم يمرُّ عليه، ويفسح لي المجال لمعرفة كل شيء عنهم.

رحبت بي أم أنطونيو ثانية، وعبرت عن سعادتها لزيارتي قصر أجدادها، واستمر بصرها بالتنقل في كل الجهات، ثم طلبت مني الموافقة على إعطائي لمحة تعريفية عن القصر قبل تجوالنا فيه، أومأت برأسي موافقا على اقتراحها، ثم طَلَبَت من أنطونيو أن يترجم لنا كل ما يجري بيننا من أحاديث، وقد أفاضت بالتعريف بكل ما نرى حولنا، وبيَّنتْ لي أن قصر الحمراء يتكون من جناحين كبيرين، هما جناح قمارش الذي يضم في جنباته قاعة السفراء، وبرج قمارش الذي يعلوه، وأشارت بيدها نحو هذا الجناح عن بعد، ثم استطردت بالحديث عن الجناح الثاني، وهو جناح الأسود، ويتوسطه فناء الأسود.

توقفت عن الحديث هنيهة ثم قالت:

«سوف يَسحرك في هذا الفناء صوتُ الماء وهو يتدفق من أفواه الأسود، وتغدقُ السعادة على كل من يراها، خاصة عندما يقرأ السياح ما كتبه الشاعر بن زمرك من شعر عن الماء تم نقشه في هذا الفناء».

ثم أضافت مستدركة:

«ومن أجزاء القصر الأخرى: قاعاته الواسعة وأفنيته وأبهاؤه وقاعة الانتظار والحمامات الملكية، إضافة إلى الأبراج والدور ودوائر الدولة».

اتسع شرحها وهي تحدثنا، وانفرجت أساريرها بالسعادة لأنها تنقل معلومات وفيرة عن قصر أجدادها، تعرفه كأنه بيتها الذي تقضي فيه أيامها المتعاقبة في مدريد.

(34)

عبرت لها عن إعجابي بالمعلومات التي سمعتها منها، بعدها طلبَت منا التجول في القصر، والمرور بكلّ جزء فيه للتمتع بمآثره الفنية التي يندر توفرها في أي قصر من قصور القدماء.

سكتت لحظة، ثم قالت وابتسامة عريضة مرسومة على وجهها:

«دعنا نبدأ».

بدأنا ثلاثتنا التجوال في القصر على ضوء المعلومات التي قدمتها قبل قليل، تأكدتُ أثناء تجوالنا أن لكل شيء سحره في قصر الحمراء، وكل ما فيه يجلُّ عن الوصف.

سقطت دمعة من عينيها عندما ترجم لها أنطونيو بيت شعر باللغة العربية لابن زمرك الغرناطي، نُقش في عهد بني الأحمر على واجهة قمارش، بقرب تيجان أعمدته وأعماله الزخرفية. يقول فيه الشاعر عن أحد ملوك بني الأحمر:

منصبي تاجٌ وبابي مَفرق يحسُدُ المغربُ فيّ المشرقُ

أشارت لي بأصبعها نحو «سقف قمارش» وبيَّنتْ لي أنه من معجزات أعمال النجارين في غرناطة، استمتعت بالنظر بدقة بالغة لتكوينات السقف الخشبي ومنظره الجميل. لم أغفل النظر إلى أي جزئية منه، بعدها واصلنا التجوال في أجزاء أخرى من القصر وكانت أم أنطونيو مرشدتنا، التزمت بتعريفي بكل ما أراه في قصر أجدادها، لم تتوقف عن الشرح والتعريف بصوت خافت حتى لا تزعج السياح الذين يتجولون حولنا، واصلت

التجوال معنا ولم تبتعد عنا خطوة واحدة.

تريثت بعض الوقت قبل أن أبدي رأيي بما سمعته منها عن القصر، ثم قلتُ لها بكلمات واضحة:

«سحرني كل ما سمعته منك عن مشاهد القصر المدهشة».

أضفت مستطردًا، بأنني اجتاحتني فرحة عارمة عند رؤية الأعمدة والتيجان والأقواس المنتشرة على اتساع المكان، وسحرني فنُّ الرقش «الأرابيسك» بأشكاله المتشابكة على الجدران، واستمتعت بما قلتِه عن زخرفة المقرنصات التي اعتبرتِها عنصرًا زخرفيًّا مهمًّا من عناصر العمارة الأندلسية، يُزين الأسطح المستوية والمنحنية، وأكثر ما يستخدم هذا الفنّ في زخرفة المحاريب والأقواس والقبب.

بعدئذٍ لم نكد نجتاز أحد الممرات الطويلة حتى وصلنا إلى قاعة العرش التي حدثَتْ فيها أنطونيو عن سرّ أجدادها بعد سقوط غرناطة، واحتفاظهم بمخطوطة القرآن القديمة طيلة خمسة قرون. عَجزت في تلك اللحظة عن إصدار أدنى صوت، سكتت ولاحظت أن عينيها تزدادان بريقًا، وتدور في رأسها بعض الأفكار تريد أن تعبر عنها بكلمات عاطفية، انتظرت سماعها لكنها لم تقل شيئًا.

بعدها تابَعت حديثها بالتعريف بالقاعة التي كان يجلس فيها الملوك، ويلتف حولهم القادة وكبار رجال الحكم، وقضت وقتا طويلًا وهي تحدثنا عن الزخارف التي تزين المكان، وأكدت أنه لا أحد يتقن تنفيذها مثل أهل الأندلس.

تَوقفت عن الحديث لحظة وسألتني بحماس ظاهر:

«أي اسم عربي كان عليَّ أن أحمله لو عشت في زمن أجدادي؟».
فأجبتها على محملٍ من الجد:

«اسم لطيفة لأنك على مستوى عالٍ من اللطف».

شكرتني عندما عرفت معنى الاسم.

واصلنا التجوال، وتجاوزنا أقسامًا أخرى من القصر، منها قاعة الانتظار، وشدتني ألوانها الجميلة التي يتجلى فيها اللون الذهبي والأخضر والأحمر والأزرق، واستمتعت بمنظر نافورة صغيرة في وسطها، ذكرتني بنوافير بيوت دمشق القديمة.

أثارتني أيضاً قاعة الأختين، بأرضيتها التي تحتوي على قطعتين من الرخام متساويتين وضخمتين، بعدها توقفنا ثلاثتنا في بهو الأسود، واستمتعنا بمنظر نافورة الأسود بحوضها المرمري المستدير، وعليه اثنا عشر أسدًا من الرخام تتدفق المياه من أفواهها بحسب برمجة نادرة لا مثيل لها، تُنظّم تدفق الماء منها في ساعات الليل والنهار.

أومأت برأسي طيلة تجوالنا معبّرًا عن إعجابي بما أرى من أجزاء القصر البديعة بألوانها ونقوشها وفنها المعماري النادر، لاحظت أم أنطونيو سعادتي لكل ما تعرفت عليه من إبداعات عمرانية في قصر الحمراء، ثم قالت:

«قصر أجدادي جوهرة الهندسة المعمارية في العالم أجمع لا يوجد له أي مثيل بين القصور القديمة، وهو وجهة السياح المفضلة في كلّ الفصول، وبابه مفتوح لهم من الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل».

(35)

خيَّم الصمت علينا بعض الوقت، ثم اتّجهنا إلى الباب الرئيس وخرجنا منه إلى ساحة فسيحة خارج القصر، ووجدنا متعة بالجلوس على حجارة كبيرة مصفوفة على مقربة من الباب، جلسنا عليها، ونظرت أم أنطونيو إلى الباب، وعلمت منها أن طوله يمتد إلى أعلى بنحو خمسة عشر مترًا.

ثم أضافت من جانبها قائلة:

«رغم تقدير العالم كلّه لفنّ الهندسة العمرانية التي يتميز بها قصر الحمراء، إلا أنَّ قلة من المختصين يعرفون قصة بنائه».

عندها تساءلتُ:

«هل يمكنني سماع قصة بناء القصر منك؟».

فأجابت:

«تمَّ بناء القصر على ثلاث مراحلَ دامت نحو نصف قرن، وفي أوقات مختلفة. تمّت المرحلة الأولى قبل ما يقرب من ألف عامٍ، نفذها جدي الأكبر، باديس بن حبوس الصنهاجيّ، ثالث حكام طائفة غرناطة في عهد ملوك الطوائف. بعد أنْ خضعت غرناطة لحكم النصريين نفذ أول ملكٍ منهم المرحلة الثانية من بناء القصر، ثم نفذ ثاني ملك منهم المرحلة الثالثة».

مضى الوقت بطيئًا وأنا أُراكم معلومات أم أنطونيو وأسجلها على أوراقي، وبعد لحظات قليلة وجدتها تردد على مسمعي معلومات مهمة عن إنجازات كل مرحلة من مراحل بناء القصر.

ضحكتُ بجذل طفولي فرحًا بما أسمعه من معلوماتها الإضافية التي أكدت بزهو أن جدها باديس بن حبوس هو الذي اختار موقع القصر على هضبة عالية تقع على الضفة اليسرى لنهر حدرة، وطوقها بسور منيع من أطرافها، ثم بنى فوقها قلعة عُرفت في عهده باسم «القلعة الحمراء». وبنى داخل السور قصرًا اعتبره مركزًا لحكومته، وصار قصر الحمراء جزءًا منه.

عقبتُ:

«لجدك الفضل الأكبر بتشييده واختيار اسمه، ولم يكن على ما هو عليه في الزمن الحالي».

فأجابتني:

«شهد القصر إضافات هامة مع مرور الوقت، وظهر بأشكال فنية جاذبة».

علمت في سياق حديثها أن الملك الأول للنصريين قد نفذ المرحلة الثانية من مراحل تطوير القصر، بإضافة حصونٍ منيعة بجانبه، وجلب الماء له من نهر حدرة، وجعله مركزًا لحكمه. بعده نفذ ملك النصريين الثاني المرحلة الثالثة لتطوير القصر، ولكونه كان شاعرًا وفنانًا موهوبًا، اهتم بالجانب الجمالي للقصر فكساه بأبدع الزخارف التي نراها الآن، كما اهتم ببناء الأجنحة الملكية، والأبهاء التي عرفها القصر لأول مرة.

***

خيم الصمت علينا، بعدها طلب مني أنطونيو أن نلبي دعوة أمّه لتناول وجبة الغداء في مطعم معروف في غرناطة، أومأت له برأسي موافقًا، وبهذا

أنهينا جلستنا في ساحة القصر ومضينا معًا في سيارته. عدنا أدراجنا نزولًا باتجاه نهر حدرة، تابعنا السير، ثم اقتربنا أكثر فأكثر من بلازا نويفا الشهيرة المزدحمة بفناني الشوارع. حدثني أنطونيو عنها وبيَّن لي أنها من أهم الساحات في غرناطة، وبينما كان يصفها لي وصفًا دقيقًا، ، خفف سرعة سيارته ثم أوقفها أمام مطعم بجانب الساحة اسمه فرالا.

ترجلنا ودخلنا المطعم الذي اختارته أم أنطونيو، أعجبتني تصميماته الداخلية، وبيَّنَت لنا أنها اختارته لأطعمته الطيبة، ولأنها جربته عدة مرات من قبل.

انشغلنا في الحال باختيار الطاولة المناسبة، اتجهنا إلى زاوية وجلسنا حول طاولة اختارتها أم أنطونيو. لفت نظري اهتمامها بتثبيت بصرها على قصر الحمراء عن بُعد، وبينما كانت تجول ببصرها حوله، بينت لي أن غرناطة تزهو به، مفتخرة بالإرث الحضاري الأندلسي.

توقَفت عن النظر إلى القصر، ثم سألتني:

«أي طعام تفضل للغداء؟».

أجبتها دون تردد:

«أكلة البايلا الأندلسية».

ظهرت علائم السرور على وجهها، وقالت:

«إنها أكلة عربية اسمها البقايا، تُقدَّم بخلط الأرز مع اللحم والدجاج والخضار».

علق أنطونيو قائلًا:

«وتقدم مع ثمار البحر المختلفة في المدن الساحلية كمدينة المرية».

هززت رأسي موافقًا على كلامهما، وقلتُ:

«إنها أطيب أكلة، تُذكرني بمآثر العرب الأندلسية».

طلبت أم أنطونيو من النادل أن يُزودنا بأكلة البايلا، كما تُقدم في غرناطة.

وبينما كنا نتناول وجبة الغداء، دار حديث أم أنطونيو حول تشابه طعام الأندلسيين والطعام العربي، بما في ذلك الحلويات، توقفت عن الكلام، ثم استطردت بتعريفي على أكلة البايلا وقالت عنها إنها أشهر أكلة أندلسية، اخترعتها جداتنا في قديم الزمان، وأساس تركيبتها بقية الطعام الذي كان يُعطى للفقراء بعد أن يملأ أصحاب الولائم بطونهم، بدلًا من رميها، ويكسبون بهذا حسنات تضاف إلى أعمالهم الطيبة.

وفي لحظة أبدت حركة بيديها للتعبير عن اعتذارها لدعوتي لتناول الغداء في مطعم بدلًا من دعوتي لتناول الغداء في بيتها في مدريد، وأرجعت السبب في ذلك لضيق وقتي لأنني سأرجع مساء اليوم بالطائرة من مطار ملقا إلى مكان عملي.

أومأت برأسي موافقًا على حديثها، ثم شكرتها على دعوتها لي، ووعدتها أن أزور غرناطة مع أسرتي في إجازة الصيف القادم، وأن أقضي وقتًا طويلًا في قصر الحمراء، وأتعرف على كل أحياء غرناطة وأمشي في شوارعها على قدمي شارعًا بعد شارع.

فور أن سمعتني قالت لي ولأنطونيو: «أدعوكما منذ الآن إلى أكلة البايلا التي أجهزها بطريقتي، لا كما تقدمها المطاعم حتى الشهيرة منها كالمطعم الذي نحن فيه الآن».

بعدئذٍ، انتقلت أم أنطونيو بحديثها إلى جوانب تتعلق بقصر أجدادها قصر الحمراء، وعلى ضوء حديثها قُلت بنبرة حزينة:

«يظن أغلب الناس أن الذين شيدوا القصر هم ملوك بني الأحمر الذين لا ينحدرون من قبائل الصناهجة من حِمْيَر حضرموت، لأنهم من قبيلة الخزرج القحطانية التي هاجرت من اليمن بعد انهيار سد مأرب، واستقرت في البداية في نجد والحجاز».

انتبهتُ إلى عينيها وهي تحدق بقصر الحمراء عبر نافذة كبيرة من نوافذ المطعم، أخذت تجول بنظرها في جنباته بخيال جامح، وهنا وجدتني أسألها:

«إلى أين امتدت مملكة جدك الأكبر باديس بن حبوس الصنهاجيّ يوم موته». تحاشت ان تتوسع في هذا الجانب بدافع من التواضع لا يتقنه إلا الكبار الكبار، ثم قالت بكلمات مختصرة:

«عندما مات جدي الأكبر باديس، كانت مملكته تمتد من بسطة شرقًا حتى إستجة ورندة غربًا، وبياسة وجيان شمالًا، وحتى البحر جنوبًا».

بعدها ذكرتني بما قالته لي عن مراحل تأسيس قصر الحمراء، وقد شدني حديثها، وعقبتُ قائلًا:

«تشير الكثير من المخطوطات القديمة التي اطلعت عليها في مكتبة «الأحقاف» أثناء زيارتي الأخيرة لليمن، أنَّ الباني الحقيقي لقصر الحمراء هو جدك الملك باديس بن حبوس الصنهاجيّ».

صفقت أم أنطونيو معبرة عن إعجابها بكلامي، ثم تساءلت:

«ماذا تعني كلمة الأحقاف؟».

فأجبتها:

«كلمة عربية تعني ما استطال من الرمال في الصحراء على هيئة جبل، وهي نادرة الاستخدام، ويعرفها بعض الرواة بأنها مدينة قديمة ما بين حضرموت وعُمان سكنها في قديم الزمان قوم عاد».

سرعان ما سألني أنطونيو:

«متى تُقلع الطائرة الكويتية من مطار ملقا؟».

فأجبته:

«في تمام الساعة العاشرة مساء».

عقب على كلامي قائلًا:

«الساعة الآن الخامسة بعد الظهر، ولديك الوقت الكافي للحاق بالطائرة».

توقف أنطونيو عن الحديث، واقترحت أمه أن نتجه إلى محطة الحافلات لكي أركب في أول حافلة متجهة إلى مطار ملقا.

ثم أضافت:

«تتوفر حافلات مباشرة من غرناطة إلى مطار ملقا بأوقات منتظمة طوال أيام الأسبوع، وتستغرق رحلتها ساعتين».

بعدها اعتدلت في جلستي، وعبرت عن سروري للتعرف على خفايا قصر الحمراء، بأسلوب أم أنطونيو الشيق، ووصفها الدقيق لمآثر أجدادها التراثية.

(36)

خرجنا من المطعم، ومضينا في طريقنا نحو محطة حافلات غرناطة، تجاوزنا عدة تقاطعات، وسرعان ما انعطفنا في شارع جانبي، وسرنا فيه نحو عشر دقائق لا أكثر، ومن ثم استأنفنا السير في شارع عريض أوصلنا بعد لحظات إلى محطة الحافلات، بعدئذ ترجلنا من السيارة، واتجهنا مباشرة إلى بناية المحطة، في الحال وقفت أمام شباك بيع التذاكر بعض الوقت وسرعان ما ابتعت تذكرة، واتجهنا ثلاثتنا مشيًا على الأقدام حتى وصلنا إلى الرصيف المخصص لحافلات ملقا، عندها تشابكت أيدينا في لحظة الوداع وصعدت إلى الحافلة ولوحت لأنطونيو وأمه بيديّ، وسمعتها تقولُ وهي على وشك البكاء:

«الوعد هو الوعد، وعليك أن تفي بوعدك، وتزورني في مجريط (مدريد) خلال إجازتك في الصيف القادم».

ابتسَمت، عندما سمعت قسمي وأنا أؤكد فيه بأنني سوف أفي بالوعد.

وبينما كنا ثلاثتنا نلوح بأيدينا، بدأت الحافلة بالخروج من المحطة، وواصلت التلويح حتى توقفت عن رؤية أنطونيو وأمه، بعد أن ابتعدت الحافلة عن المحطة، وواصلت حركتها بسرعة في الشارع الممتد إلى جنوب الأندلس.

نقلت بصري بين الجالسين في الحافلة، وفجأة شعرت برغبة في النوم، أغلقت جفوني وغرقت في سبات عميق طيلة رحلة الحافلة من غرناطة إلى مطار ملقا، لأنني لم أنم في الليلة الفائتة كما يجب.

بعدها وصلت إلى مطار ملقا، وبعد فترة قصيرة من الانتظار، أنهيت إجراءات السفر، وانتظرت حتى وقت إقلاع الطائرة في قاعة المغادرين. اجتاحني شعور بالراحة لوصولي في الوقت المحدّد دون تأخير، وأخذت أنظر في وجوه المسافرين، علي أجد أحدًا أعرفه بينهم، ولحسن حظي وجدت أمامي صديقي موفق الخبير البيئيّ المعروف، عبرتُ لهُ عن فرحي للقائه، وبين لي أنه كان بمهمة عمل للمؤسسة التي يعمل فيها ومقرها الكويت، لمتابعة تنفيذ مشاريع يُشرف عليها في اليمن والسودان والمغرب.

بعد وقت قصير من الانتظار صعدنا أنا وصديقي إلى الطائرة، وجلسنا في مقعدين متجاورين، وبعد أن صعدت الطائرة مسرعة في الهواء، جرت ذيلها خلفها وأخذت تطارد الغيوم في بيادر السماء.

اتسع مدى الحديث مع صديقي، وعندما أعلمته عن زيارتي لليمن قبل فترة قصيرة من الزمن، وضح لي بأمثلة عديدة عن إعجابه بالحضارة اليمنية، ولاحظت اهتمامه بذكر ناطحات السحاب والقصور الطينية التي بناها القدماء وما زالت ماثلة للعيان تنافس الفنّ المعماري الحديث، وبيّن لي أيضًا إعجابه بمخطوطات مكتبة الأحقاف، والقصيدة التي تظهر قصيدة مديح إذا قُرِئَت من جهة اليمين إلى اليسار، وتصبح قصيدة هجاء إذا قُرِئَت من جهة اليسار إلى اليمين.

تحدثنا طوال الرحلة عن مآثر اليمن الحضارية، ودبّ الفرح في قلبي عندما تحدثنا عن المهرة ولهجتهم القديمة التي اشتقت من اللغة الحِمْيَرية، بعدها توقفنا عن الحديث عن اليمن، وسرعان ما تناولنا بعض الصحف والمجلات التي توزع في الطائرة.

تصفح صديقي جريدة الوطن الكويتية، وأنا تصفحت مجلة النهضة الكويتية، وغمرني الفرح عندما قرأت قصيدة لي نشرتها المجلة في آخر عدد لها، أدركت وقتها أن قراءة الشعر في الطائرة لها نكهة أخرى، لأنَّ الأحاسيس يعلو دفقها مع مواصلة الطيران في الهواء، ويسترخي المسافر بهدوء، خاصة إذا قدرت له رفقة طيبة.

هذا ما قلته لصديقي موفق، أخذ المجلة مني وقرأ القصيدة، أعجبته وسرعان ما سألني:

«فيها نمط من الغزل الجميل. أنت تتقنه في شعرك».

قُلتُ تلقائيًا:

«إنّه مجرد صف كلام منظوم لا أتقن التعبير عنه في الحياة الحقيقية».

ضحكنا في وقت أعلنت فيه المضيفة عبر مكبر الصوت أن الطائرة بدأت الهبوط، وبعد وقت قصير لامست عجلاتها الأرض، وسرعان ما خرجنا من المطار. ركبت مع صديقي سيارة كانت تنتظره ومضينا نحو السالمية التي نعيش فيها في بيتين متجاورين.

***

في اليوم التالي التقيت مع صارم وضاري وداغر في مقهى البركة الشعبي الذي تعودنا الجلوس فيه على طرف شارع الخليج العربي، وعلى مقربة من حي السالمية. لم يلبث حديثنا أن دار حول رحلتي إلى إسبانيا، وبعد أن أنهيت كلامي، بيّن لي أصدقائي الثلاثة أنهم اتفقوا على أنْ يستقبلوا معًا العام الجديد في جزيرة سقطرى اليمنية التي تعتبر أكبر الجزر العربية واليمنية. موقعها استثنائي في تنوع النباتات والطيور والأسماك، وتوفر أكثر من ثلاثمائة نوع من المرجان في مياهها، تتباهى بها الطبيعة، وتجعلها أجمل جزيرة في العالم، وتضعها في مركز بارز في قائمة مواقع التراث العالمي التي تحافظ عليها هيئة دولية.

كنت سعيدًا عند سماعي أنَّ مضيفنا في الجزيرة هو صديقنا، محمد الحِمْيَري، وأن لديه قاربا يشبه قارب جمال أبو صارم، وفي إضافة هامة بينوا أنهم سينطلقون إلى الجزيرة بعد عشرة أيام.

تناولنا رشفات من الشاي، وبادرني صارم متسائلًا:

«هل ستشاركنا رحلتنا؟».

أومأت برأسي موافقًا على مشاركتهم الرحلة، ثم قلتُ:

«سوف أدعو أنطونيو وزوجته كارمن وابنهما الصغير مانويل، لمشاركتنا الرحلة، حتى يقتات على مآثر أجداده الحِمْيَريّين، لأنَّ الجزيرة كانت ذات يوم في ما مضى تابعة لحضرموت».

في اليوم التالي، اتصلت بأنطونيو في المرية، حدثته عن رحلتنا، وأنبأته أنَّ مضيفنا في الجزيرة من الحِمْيَريين اسمه محمد الحِمْيَري وأعرفه أنا وأصدقائي منذ فترة طويلة.

سمعته يتلفظ بكلمات لزوجته عن الرحلة، وما هي إلا دقائق حتى نقل لي ترحيبه هو وزوجته وابنهما للانضمام إلينا، لكنّ له مطلبًا يتمنى تحقيقه.

سألته عن مطلبه، وأجاب بعاطفة جياشة:

«أريد أثناء الرحلة أن أزور قرية تاربة في وادي حضرموت، وأتلمس بيدي آثار أجدادي في قارة الصناهجة، في وادي وصحراء حضرموت».

وافقت على طلبه أثناء المكالمة الهاتفية، وأكدت له موافقة أصدقائي أيضًا، وكما توقعت وافقوا عندما نقلت طلبه إليهم، لكنهم اشترطوا أن يعرفوه أيضًا على عرش مأرب.

سميح مسعود

- شاعر وكاتب، وُلد في حيفا عام **1938**.
- درس في مدرسة البرج الحيفاويّة حتى الصف الثالث الابتدائيّ، ثمّ هُجِّر مع عائلته عام **1948** إلى بُرقة، التي تنحدر منها عائلته، وبعد أن أنهى دراسته الثانويّة، درس في جامعتَي «سراييفو» و«بلغراد» في يوغوسلافيا، وحصل في عام **1967** على درجة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة بلغراد.
- عمل مستشارًا اقتصاديًّا في ثلاث مؤسسات إقليميّة عربيّة، تتّخذ من الكويت مقرًّا لها.
- انتُخب في عام **1990** رئيسًا للاتحاد العام للاقتصاديّين الفلسطينيّين-فرع الكويت.
- عضو رابطة الكتّاب الأردنيّين، والاتحاد العام للكتّاب والأدباء العرب.
- يعمل مديرًا للمركز الكنديّ لدراسات الشرق الأوسط في مونتريال/ كندا، ورئيسًا للصالون الثقافيّ الأندلسيّ في مونتريال التابع للمركز نفسه.

- **صدر له أربعة وأربعون كتابًا، منها أربعة وعشرون في مجال الشعر والأدب، منها:**

- «الوجه الآخر للأيام» ديوان شعر، صدرت طبعته الأولى عن دار فضاءات للنشر والتوزيع، والصالون الثقافيّ الأندلسيّ، عمّان 2011، وصدرت طبعته الثانية عن الصالون الثقافيّ الأندلسيّ، ودار الوسام العربيّ وجمعيّة شروق الثقافيّة، ولاية باتنة، الجزائر 2016.
- «رؤى وتأملات» نصوص نثريّة، دار فضاءات للنشر والتوزيع، والصالون الثقافيّ الأندلسيّ، عمّان 2012.
- «حيفا.. بُرقة- البحث عن الجذور» (الجزء الأول)، صدرت طبعته الأولى عن دار الفارابي، بيروت 2013، وطبعته الثانية عن دار راية للنشر، حيفا 2014، وتمّ إشهاره في مسقط رأس المؤلف في حيفا على مقربة من مدرسة البرج التي بدأ فيها مسيرته التعليميّة، وصدر باللغة الإنجليزيّة (ترجمة الشاعر والروائي بسام أبو غزالة) عن دار إنر تشايلد برس الأميركيّة عام 2016.
- «حيفا وقصائد أخرى» مجموعة شعريّة، صدرت طبعتها الأولى عن رابطة الكتاب الأردنيّين والصالون الثقافيّ الأندلسيّ، باللغتَين العربيّة والإنجليزيّة (ترجمة الشاعر نزار سرطاوي)، عمّان 2014، وطبعتها الثانية عن المؤسستين نفسيهما في عام

2016، وصدر باللغة الإنجليزيّة، عن دار إنر تشايلد برس الأميركيّة عام 2016.

- «متحف الذاكرة الحيفاويّة»، الآن ناشرون وموزعون والصالون الثقافيّ الأندلسيّ، عمّان 2014، وتمّ إشهاره في نادي حيفا الثقافيّ/ حيفا.
- «مقامات تراثيّة»، الآن ناشرون وموزعون والصالون الثقافيّ الأندلسيّ، عمّان 2015. وتمّ إشهاره في نادي حيفا الثقافيّ/ حيفا.
- «حيفا.. بُرقة- البحث عن الجذور» (الجزء الثاني)، صدرت طبعته الأولى عن دار الجندي للنشر والتوزيع، القدس 2015، وطبعته الثانية عن الآن ناشرون وموزعون، عمّان 2015، وتمّ إشهاره في مركز محمود درويش الثقافيّ في الناصرة، وفي مجلس قروي بُرقة، وفي مقرّ رابطة الكتاب الأردنيّين في عمّان.
- «حيفا.. بُرقة- البحث عن الجذور» (الجزء الثالث)، الآن ناشرون وموزعون، عمّان 2017، وتمَّ إشهاره في معرض بيروت الدوليّ للكتاب 2017، ومعرض الدار البيضاء الدوليّ للكتاب 2017، وفي نادي إكسال الثقافيّ 2017.
- «تطوان وحكايا أخرى»، الآن ناشرون وموزّعون، عمّان 2017، وتمَّ إشهاره في معرض الشارقة الدوليّ للكتاب 2017.

- «حصاد السنين.. مذكّرات ما بعد التقاعد»، الآن ناشرون وموزّعون، عمّان 2018.
- Haifa and Other Poems, Inner Child Press, USA 2016, Translated and Edited By Nizar Sartawi.
- Haifa Burqa…A Search for Roots, Inner Child Press, USA 2016 Translated from Arabic By Bassam S. Abu-Gazalah.
- Haifa Burqa…A Search for Roots, Inner Child Press, Volume II, USA 2017 Translated from Arabic By Bassam S. Abu-Gazalah.
- Haifa Burqa…A Search for Roots, Inner Child Press, Volume III, USA 2018 Translated from Arabic By Bassam S. Abu-Gazalah.
- «على دروب الأندلس»، الآن ناشرون وموزّعون، عمّان 2019.
- «على مدارج السحاب»، شعر، الآن ناشرون وموزّعون، عمّان 2020.
- «أنطونيو التلحمي رفيق تشي جيفارا»، الآن ناشرون وموزّعون، عمّان 2020.

- Antonio of Bethlehem,Inner child Press,USA, Transleted from Arabic By Bassam S. Abu Gazalah, 2021.
- «هوشيلاجا»، رواية، الآن ناشرون وموزعون، عمّان 2020.
- «الكرملي»، رواية، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، 2021.
- «ذات القبعة الحمراء»، رواية، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، 2021.

وصدر له في مجال اختصاصه العلميّ عشرون كتابًا في مختلَف المجالات الاقتصاديّة باللغتَين العربيّة والإنجليزيّة، منها:

- Public Joint Ventures in Developing Countries, Organization, Management and Critical Issues, (joint publication) United Nations, New York 1988.
- «الموسوعة الاقتصاديّة» (جزآن)، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان/ رام الله 2008.
- «قضايا اقتصاديّة عربيّة»، دار الشروق للنشر والتوزيع، والصالون الثقافيّ الأندلسيّ عمّان/ رام الله 2009.
- «الأزمة الماليّة العالميّة، نهاية الليبراليّة المتوحِّشة»، دار الشروق للنشر والتوزيع والصالون الثقافيّ الأندلسيّ، عمّان/ رام الله 2011.

- «التنمية العربيّة في ظلّ الربيع العربيّ» ضمن سلسلة كرّاس (الرأي) الاستراتيجيّ، مركز (الرأي) للدراسات، عمّان 2014.

- **نشر العديد من المقالات الاقتصاديّة في مجلّات وصحف في الدول العربيّة وكندا، منها جريدة الحياة اللندنيّة، ومجلّة «النفط والتعاون العربيّ» مجلّة فصليّة محكّمة تصدرها منظمة الأقطار العربيّة المصدّرة للنفط، ومجلّة «المستقبل العربيّ» مجلة شهريّة محكّمة يصدرها مركز دراسات الوحدة العربيّة.**
- **نشر العديد من المقالات الأدبيّة في مجلات وصحف في الدول العربيّة وكندا، وينشر مقالاته في الوقت الحاليّ في الملحق الثقافيّ لصحيفة «الرأي» الأردنيّة، والملحق الثقافيّ لصحيفة «الاتحاد» العربيّة الحيفاويّة.**
- **البريد الإلكتروني: Smasoud38@hotmail.com**